الفصل الثانى عشر

مفهوم الحارة

دراسة تاريخية سوسيولوجية لحارة السكرية (*)

يعى اى فرد نشأ فى مصر ، وبصفة خاصة فى القاهرة ، يعى بالاستخدام الشائع لمصطلح « الحارة » ليصف جانبا من النسق الذى تنتظم عليه الشوارع . والحارة طبقا لما ذهب اليه ابن سيده هى « مكان سكنى تلتصق فيه المنازل بعضها بالبعض الآخر » (١) ويترجم قاموس وفير العربى ـ الانجليزى Wehr's Arabic-English Dictionary (طبعة ١٩٦٦ . ص ٢١٢) يترجم كلمة الحارة على النحو التالى : « الحى ، quarteo ، جزء Part ، قسم Section (من مدينة معينة) ، جيتو ghetto ، منعطف Lane ، زقاق alley شارع جانبى Side street» وبالرغم من ان أيا من هذه المسميات أو جميعها تعد تعريفات ممكنة للحارة ، الا ان المعنى الدقيق للكلمة يتنوع

(*) هذا الفصل ترجمة للدراسة التالية :

Nawal Al-Messiri Nadim, The Concept of the Hara. A Historical and Sociological Study of Al-Sukkariyya in : Annales Islamologiques, T. XV, 1979, pp. 313-348. Le Caire, Institut Français d''a''rcheologie orientale, 1979.

(١) تقى الدين احمد المقريزى ، المواعظ والاعتبارات فى ذكر الخطط والآثار ، القاهرة ، طبعة ١٨٧٧ . الجزء الثانى ، ص ٢ .

بتنوع الأطر المرجعيـة التاريخيـة ، والادارية ، والثقافيـة الاجتماعيـة ، والادراكية •

الحارة : مفهوم ذو عمق تاريخى

كانت الحارة فى مدينة العصور الوسطى اسما يطلق على حى أو قسم من أقسام البلدة • وكان لكل حارة فرع رئيسى أو شارع جانبى يطلق عليه الدرب غالبا ما يسمى كل الحى باسمه • وفى الكثير من الحالات كانت الحارة تنتهى بممرات ضيقة مغلقة (٢) يطلق على كل واحـد منها العطفة (٢) •

---

(٢) أشار على مبارك فى تقسيمه لانماط الشوارع الى الحقيقة التى مفادها أن أيا من الحارة او الدرب أو العطفة قد ينتهى بممر مغلق أو مفتوح •

انظر : على مبارك . الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، القاهـرة ، ١٨٨٩ . ص ١٢٤ •

قدم على مبارك فى الاجزاء الاولى من « الخطط التوفيقية » وصـفا تفصيليا دقيـقا للقاهرة والاسكندرية ، فتحدث عن الشوارع والحارات والعطف والدروب ، كما قدم وصـفا لمساجد المدينة وتاريخها والزوايا والمدارس والاضرحة والاسبلة والحمامات والدور الشهيرة والقصور والكنائس والمكاتب الاهلية والوكائل والتكايا الموجودة بها . كما قدم وصـفا للكثير من الاماكن ذات التاريخ مثل الاسواق والمحال التجارية والميادين والمزارات والحوادث الهامة من فترة تمتد من العصر الفاطمى وحتى نهاية عصر توفيق فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .وفى أماكن متفرقة من الكتاب تحدث عن معظم مدن مصر الصغيرة والكبـيرة وقراها ، مقدمـا وصفا لايكولوجية معظم المدن وتاريخها واحداثها الهامة . ويعـد هـذا الكتاب وثيقة هامة للمهتمين بعلم الاجتماع بصفة عامة ، وعلم الاجتماع الحضرى بصـفة خاصـة .

على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة ، المطبعة الاميرية ، بولاق ، ١٣٠٦ هـ . الطبعة الاولى وتقع فى عشرين جزءا تضمها اربعة مجلدات .

(المترجم)

(٣) André Ruymond «Quartires populaires au Caire au Siecle». in **Political and Social change in Modern Egypt.** P.M. Hott (ed). Oxford Uni Press, London, 1968, p. 110.

ولقد كانت القاهرة فى القرن الثانى عشر مقسمة الى عدد من الحوارى يتراوح من ١٠ ـ ١٥ ، ومع بداية القرن الخامس عشر قدر المقريزى (المرجع السابق) عدد الحوارى بست وثلاثين حارة • وكان يسكن الحوارى فى ذلك الوقت جماعات متجانسة تربطها خصائص مهنية وعرقية أو كليهما معا ، والمثال على ذلك حارات اليهود (أحياء اليهود) • وكانت الحارات تسد ببوابات تغلق أثناء الليل • وبالرغم من شيوع هذا النمط من العزلة العرقية ، فانها لم تؤد الى عزلة تشبه عزلة الجيتو (٤) • وكان الأغنياء والفقراء يسكنون هذه الأحياء على حد سواء وذلك لأن ساكنى الحوارى كانوا يشاركون فى عمليتى الانتاج والتوزيع فى آن واحد • فكان الحى يشتمل على مساكن التجار الميسورين ومساكن العمال وأصحاب الحرف الفقراء (٥) • وبالرغم من عدم التجانس الاقتصادى لسكان الحوارى ، فان الشواهد تشير الى وجود أحياء للاستقراطية وأحياء أخرى لعامة الناس خلال القرن الثامن عشر • وقد تركزت أحياء الفقراء محافظة على وجودها حول الأنشطة الاقتصادية التى يمارسونها مثل ذبح الماشية ، وطحن الحبوب ، وصباغة الجلود : وهى أنشطة لا يفضل الارستقراطيون من السكان منتجاتها أو وجودها ، اذ كانوا يعتبرون الأعمال المتصلة بانتاج الطعام لا يتناسب مع العمل الارستقراطى(٦)• وطبقا لما ذهب اليه ستفا staffa فان شارع القصبة (وهو الشارع الذى تتبعه حارة السكرية) كان به عدد كبير من السكان الذين ينتمون الى الصفوة • ومع ذلك ، فان هذه المساكن لم تكن مساكن فخمة بحال من الأحوال ، وانما كانت أقرب الى المنازل الاحتياطية التى يستخدمها المماليك(٧)

---

(٤) Ira M. Lapidus., Middle Eastern Cities. Berkelens. Uni. of California Press 1969. p. 80.

(٥) Lapidus, 1969, op. cit., Abu-Lughod, J, Cairo, 1001 year of the City vitorious, N.J. Brinceton University Press, 1971, p. 24.

(٦) Raymond, 1368 op. cit., p. 100.

(٧) كون المماليك الصفوة والقوة الحاكمة لمصر من عام ١٢٥٠ حتى ١٥١٧ ميلادية .

غندما يشعرون أن منازلهم فى لأحياء الارستقراطية عرضة للهجوم (٨) • ومن الاهمية بمكان ايضا أن نلاحظ أن رايموند Raymond قـــد أكـــد أن النمط العمرانى المتدرج للشوارع فى القرن الثامن عشر ، والذى يتدرج مـن الدرب فالعطفة فالأزقة المسدودة ، كان ذا أهمية بالغة فى الأحياء التى يقطنها الفقراء (٩) •

كذلك كانت الحارة تمثل فى العصور الوسطى وحدة سياسية فى النظام الادارى والرقابى : فكان لكل حارة موظف سياسى ، هو شيخ الحارة • وبالرغم من أن حاكم المدينة هو الذى كان يختاره ويعزله عن وظيفته ، الا أنه كان المتحدث الرسمى الرئيسى والمشرف على ادارة الحارة وكان هؤلاء المشايخ يحتلون أماكن الصدارة فى التجمعات العامة وكانوا يستقبلون الحكام، والشعراء ، وأى زوار مرموقين لحواريهم • ومع ذلك ، فان الواجب الادارى الأساسى لشيخ الحارة كان ينحصر فى دفع المتطلبات الأميرية للنظام الملوكى من دخول سكان الحارة (١٠) • ولقد اختلف دور شيخ الحارة باختلاف القوة المسيطرة للحكومة المركزية وباختلاف اهمية الحارة كوحدة ادارية (١١) • وبالرغم من أن طابع وظيفة شيخ الحارة قد اختلفت باختلاف العصور ، الا أن هذه الوظيفة ظلت قائمة منذ العصور الوسطى وحتى الوقت الحاضر • فقد لاحظ وليم لين ـ على سبيل المثال ـ فى ثلاثينيات القرن الماضى أن شـيخ الحارة كان مسئولا عن المحافظة على النظام وتسوية الخلافات الحادة بين

---

(٨) S.J. staff, Medieval Cairo : A Socio-Cultural study of an Historic Urban Center of the Near East. Unpublished Doctorat Dissertation, Department of Anthropology. Indiana University, p. 330.

(٩) Raymond, 1968, op. cit., p. 110.

(١٠) Ira, M. Lapidus, Muslim cities in the latter Middle Ages. Cambridge : Harfard University Press, 1967. p. 62.

(١١) Abu-Lughad, 1971, p. 71.

سكان الحارة وجيرانهم (١٢) وظلت هذه الوظيفة الى أن الغت فى عهد عبد الناصر فى عام ١٩٦٢ (١٣) ٠

ولقد عرفت الحوارى فى العصور الوسيط أيضا نظاما غير رسمى للقيادة عرف بالفتوة ٠ والفتوة هو رجل قوى يلعب دور الحامى للمنطقة التى ينتمى اليها ، ولكنه مثير للمشاكل بالنسبة للمناطق الأخرى ٠ وحتى بداية القرن العشرين ، كانت كل منطقة تتحدد كمنطقة نفوذ لواحد أو عديد من الرجال فى مقتبل العمر ، ممن يتسمون بالقوة البدنية ، ويظهرون مهارة فى استخدام النبابيت ، والسكاكين ، والسيوف ، والبنادق ٠ ولقد كان من الشائع أن نجد أن المناطق داخل الأحياء القاهرية القديمة كانت تعرف باسم فتواتها وكان الفتوة يعرف باسم المنطقة (١٤) ٠

ولقد بدأت طبيعة الحارة كوحدة ادارية تتغير مع وصول الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨ ٠ لقد أصبحت الحوارى أصغر حجما وأزيد عددا ٠ ولقد أخبرنا جومار Jomard أن القاهرة كانت تمر خلال القرنيين السابع عشر والثامن عشر بمرحلة من التدهور الادارى الذى يتبدى على نحو خاص فى تزايد تعقد الشبكة المتداخلة لنظم الشوارع مع وجود حوارى عديدة مسدودة ٠ وكانت القاهرة تنقسم مع نهاية القرن الثامن عشر الى ثلاث وخمسين حارة ٠ وعندما دخلت القاهرة تحت الحكم الفرنسى ، جمعت الحوارى المختلفة جمعا اداريا فى ثمانية أقسام ، عرف كل منها بالثمن ٠ وأصبحت هذه الأقسام اساسا للتنظيم الادارى الحالى للمدينة (١٥) ٠ وكان كل ثمن

---

(١٢) Lane, E.W. Manners and customs of Modern Egyptians, London, Every man's Library. 1860. (First published in 1863 p. 124.

(١٣) Abu-Lughod, 1971, p. 71.

(١٤) Sawsan Al-Messeri, «The Role of the Futuwwa in the Social structure of the City of Cairo,». Paper for the conference on changing forms of Patronage, 1974. p. 25.

(١٥) Abu-Lughod, 1971, op. cit., pp. 25-26.

يقسم الى شياخات وعرف القائد السياسى للتمن بشيخ التمن وكان يحصل على مرتبة من الحكومة المركزية • أما القائد السياسى الرسمى للشياخة فكان يطلق عليه شيخ الحارة • وانحصرت مسئوليته فى مساعدة الملاك على تأجير منازلهم ، نظير مقابل يدفعونه له (١٦)• وبالرغم من أن الحارة قد حافظت على معناها ووظيفتها كحى ، الا أنه مع حلول القرن التاسع عشر لم تعد الحارة تلك الوحدة الادارية وانما أصبحت تحتل المرتبة الثانية •

ومن الناحية التاريخية ، لم تعتبر السكرية فى الدرب الأحمر كحارة بمعنى كونها حى ادارى متميز ولكنها كانت جزءا من حارة الروم أو الحى اليونانى • وبصورة أكثر تحديدا فان السكرية أطلقت على منطقة فى الدرب الأحمر تعرف حاليا باسم شارع المعز ، والذى كان الشارع الرئيسى فى قاهرة العصور الوسطى ومن ثم فقد عرف بالقصبة • وكان هذا الشارع يشق المدينة فى العصور الوسطى ويقسمها الى قسم شرقى وآخر غربى •

ولقد كان للاقسام المختلفة والمناطق المختلفة من شارع القصبة أسماء خاصة بها وفقا للنظام السائد للتسمية فى مدن الشرق الأوسط فى العصور الوسطى فقد حددت أسماء الأقسام طبقا للمهنة أو التجمع العرقى للسكان أو كليهما معا • وقد لاحظ مؤرخون من أمثال ادوارد لين Lane (١٨٦٠) وستانلى بول (١٨٨٤) Poole وعلى مبارك (١٨٦٠) أن هذا المبدأ ظل سائدا حتى بدايات القرن التاسع عشر ، وما تزال آثار هذه الظاهرة باقية عند الخيامية (صانعى الخيام) حيث ما يزال هناك تجمعا من المتخصصين العاملين فى صناعة الخيام المزخرفة • وبنفس الطريقة ، فما يزال النحاسون أو العاملون فى أشغال النحاس على جانب من الأهمية فى هذا الضمار • ويشتق اسم المنطقة التى نتناولها بالدراسة هنا ـ السكرية ـ من « السكر » • ولقد

---

(١٦) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، مرجع سابق ، الجزء الاول ، ص ٢١٦ •

أطلق عليها هذا الاسم أثناء القرن الثامن عشر عندما كان بائعوا السكر يتركزون فى المنطقة (١٧) ٠

ومن الأهمية بمكان أن نلقى الضوء على الوضع الفيزيقى والديموجرافى المعاصر للجزء الذى تقع به السكرية داخل المدينة وذلك من أجل مزيد من الفهم لهذه الحارة ٠ ويطلق مخططوا المدينة على هذه المنطقة الآن « قاهرة العصور الوسطى (١٨) ـ القاهرة الاسلامية ـ المترجم «Medieval Cairo وهى تضم كل منطقة الدرب الأحمر ، وكل منطقة الجمالية ، وشياخة باب الشعرية وشياخة المحجر والحطابة ٠ ويبلغ تعداد سكان هذه المنطقة ٢٧٧،٥٧٧ أى مايقرب من ٦ر٦٪ من المجموع الكلى لسكان المدينة ٠ ويهتم مخططو المدينة بالمنطقة، وهم يرغبون فى المحافظة عليها لأهميتها التاريخية ٠ففى نفس الوقت الذى يريدون فيه تعمير المنطقة ليدخلوا اليها نظم الاتصال الحديثة والمبانى الحديثة لا يريدون أن يتصادم هذا التحديث مع الطراز المعمارى البلدى القائم ٠

وفى ضوء هذا الاهتمام المذدوج ، قام المجلس الأعلى لتخطيط القاهرة الكبرى بمسح المنطقة فى عام ١٩٧٠ وذلك من أجل تحديد ووصف خصائصها الفيزيقية وبعض خصائصها السوسيولوجية ٠ وتوصل هذا المسح الى أن « قاهرة العصور الوسطى » تشتمل على ٩ر٦٥٦ عقار ٠ ومن هذه المبانى يوجد ٥ر٢٣٪ ذات طابق واحد ، بينما بلغت نسبة المبانى ذات الطابقين ٥ر١٥٪ ٠ اما المبانى ذات الثلاثة أو أربعة طوابق فبلغت نسبتها ٤٥٪ ٠ ولا تصل المبانى ذات الستة طوابق الا الى ١٤٪ من المجموع الكلى ، وتقع هذه المبانى بصفة اساسية على طول الشوارع الرئيسية وحول الميادين الهامة ٠ وبصفة عامة ، فان المبانى فى حالة سيئة من الصيانة ، ويمكن أن تصنف ٤ر٣٦٪ من المنازل

---

(١٧) على مبارك ، **المرجع السابق** ، الجزء الثانى ، ص ١٢٩ ٠

(١٨) اعتمدت فى هذا الجزء على المعلومات غير المنشورة الواردة فى تقرير المجلس الاعلى لتخطيط القاهرة الكبرى ٠ « القسم الخاص بتخطيط قاهرة العصور الوسطى » ٠

على انها آيلة للسقوط • وتتكرر الحوادث المؤسفة نتيجة لتهدم المبانى • وهناك ٨٥ر٤٪ من المبانى بها مياه جارية ، ٨٤ر٥٪ بها مجارى ، و٧٠ر٤٪ فقط بها كهرباء • (ولا توضح هذه الأرقام ما اذا كانت كل وحدة سكنية داخل كل مبنى تحظى بهذه الخدمات أم لا) •

ويوجد داخل المبانى البالغة ٩ر٦٥٦ فى قاهرة العصور الوسطى حوالى ٤٧ر٣٣٣ وحدة سكنية • ومن هذه الوحدات هناك ٤٠ر٤٪ تشتمل على غرفة واحدة ، و ٢٧ر٦٪ تشتمل على غرفتين ، ٢٢ر٨٪ على ثلاث غرف ، ٧ر٤٪ على أربع غرف و ١ر٨٪ فقط تشتمل على خمسة غرف • أما القيمة الايجارية لهذه الوحدات فانها منخفضة للغاية بالمقارنة بأجزاء أخرى من المدينة ، وفى الوقت الذى أجرى فيه المسح ، كان ٦١ر٥٪ من الوحدات السكنية تؤجر بأقل من ثلاثة جنيهات مصرية فى الشهر •

ومن الأهمية بمكان أن ندرس اسلوب استخدام الأرض فى « قاهرة العصور الوسطى » لنفهم الطريقة التى ينظم بها الناس حياتهم • ويوضح الجدول التالى أسلوب استخدام الأرض فيما يطلق عليه المخططون « قاهرة العصور الوسطى » •

أسلوب استخدام الأرض فى قاهرة العصور الوسطى (*)

أسلوب الاستخدام	المساحة بالفدان	النسبة المئوية
للسكنى فقط	١٤٢	٢٣ر١
للسكنى أو التجارة أو ممارسة الحرفة	١٢٦	٢٠ر٥
للتجارة	٥٢	٨ر٥
للتجارة أو الحرفة	٢٣	٣ر٨
للتعليم	٣٣	٥ر٤
للمرافق العامة	١٢	١ر٢
للاغراض الدينية أو الأثرية	٤٤	٧ر٢
شوارع وطرق عامة وحوارى	١٤٤	٢٣ر٥
ارض لم تبنى أو خرابات	٣٥	٥ر٧
أماكن ترويحية مفتوحة	٣	٠ر٤

(*) المعلومات الواردة فى هذا الجدول مأخوذة من تقرير المجلس الاعلى لتخطيط القاهرة الكبرى السابق الاشارة اليه .

تعتبر الملامح الفيزيقية والديموجرافية للمنطقة المحيطة بالسكرية كافية الآن لتجعلها ـ اذا استخدمنا مصطلحات الاخصائيين الاجتماعيين ـ واحدة من « أقل المناطق تطورا » فى المدينة فيما يتعلق بالمرافق الحضرية والخدمات . فالجدول السابق يوضح أن المكان المخصص للاغراض الترويحية يصل الى حده الأدنى ، الأمر الذى يؤدى الى أن تستخدم الشوارع والازقة فى الانشـــطة الترفيهية .

كما يوضح هذا الجدول الترابط الوثيق بين الوحدات السكنية والوحدات الحرفية والتجارية او أى منهما . فحوالى ٦١٪ تقريبا من العمال فى قاهـرة العصور الوسطى يعملون داخل المنطقة . ولما كانت المنطقة تعد مركز للحرف التقليدية فى المدينة ، فان هذا الرقم يشير الى نوعية العمل الذى ينخرط فيه السكان . وتحظى السكرية ـ كمنطقة فى شارع المعز ـ بالشهرة التى كان يتمتع بها هذا الشارع فى الماضى كمنطقة تجارية . فشارع المعز يعتبر مركزا لانتاج وتوزيع المنتجات الحرفية التقليدية للقاهرة مثل أعمال الشبابيك ، والجلد ، والمصنوعات الفضية ، والمنسوجات اليدوية . ويقدم النص التـالى وصفا حيا لشارع المعز :

« يزدحم الشارع الآن بالنسوة ذوات المآزر السوداء ، والرجال الذين يرتدون جلاليب بيضاء وزرقاء ، والأطفال الذين يلعبون فى قمصانهم وبيجاماتهم القطنية المخططة . ويبدو كل شخص وكأنه يحمل شيئا ما من مكان الى مكان آخر ، فالرأس البشرية هى وسيلة النقل الرئيسية فى هذه المنطقة .

وتصبح نوعية المبانى أكثر جودة كلما تزايدت كثافة مرور المشـــاة فى الشوارع ، ويدل ذلك على ان المرء يقترب من أكثر المناطق أهمية فى « قلب هذه المدينة » الخفى ـ وأعنى مكان بيع المعادن الثمينة ، والحرائر ، والكهرمان، والسجاد ، والتجارة السياحية التى تحقق أكثر فائدة فى الوقت الحالى . وعندما ينعطف المرء فى الازقة الضيقة ناحيـة الغرب ينكشف أمامـه عـالم لا يلحظه السائح ابدا . انه حى مظلم ذو كثافة سكانية .. وصناعية ..

وتجارية ، يتناثر الطين والنفايات على أرضه ، وتخترقه ممرات ملتوية ، وضيقة ، وقذرة ينتهى بعضها ببوابة خان يرجع الى القرن الثالث عشر ، وينتهى البعض الآخر بطريق مسدود خلفه منزل يسد شارع قديم • وكل خطوة داخل هذه الازقة تنقلنا خطوة الى الوراء عبر القرون » (١٩) •

الوحدات الاداريه الحالية التى تتبع لها الحارة

اختفى الآن تقريبا تكامل الحارة وسيادتها على نفسها • فلم تعد الكلمة مرتبطة بحى معين ، ولكنها أصبحت تشير الى الازقة الضيقة التى توجد بكثرة فى الأحياء القاهرية القديمة وبمعدل اقل فى أجزاء أخرى من المدينة •

وتقع السكرية ـ كما اشرنا من قبل ـ فى دائرة قسم الدرب الأحمر • وتعتمد بيانات التعداد والبيانات المسحية وكذلك التنظيم والتقسيم الادارى والسياسى على تقسيم المدينة الى أقسام (جمع قسم) (٢٠) • وتبلغ مساحة الدرب الأحمر ٢ر٨ كيلو متر مربع ، أو ٥ر١٪ من مساحة القاهرة • ويبلغ عدد سكانه ١٥١ر٩٤٧ نسمة يشكلون ٦ر٣٪ من المجموع الكلى لسكان المدينة• أما الكثافة السكانية فتبلغ ٥٣ر٩٨٩ فى الكيلو متر مربع ، بينما يبلغ متوسط الكثافة السكانية فى المدينة كلها ١٩ر٥٩٤ نسمة للكيلو متر المربع • ولم تتزايد كثافة هذه المنطقة بالذات تزايدا جوهريا فيما بين تعداد ١٩٦٠ وتعداد ١٩٦٦ • فلم تبلغ الزيادة الا ٧ر١٪ فقط ، بينما تزايدت الكثافة السكانية للقاهرة ككل فى نفس السنوات بنسبة ٣ر٢٥٪ (٢١) ويكمن أحد الاسباب

---

(١٩) Abu-Lughod, 1971, op. cit., p. 190.

(٢٠) تتكون القاهرة من واحد وعشرين قسما ينقسم كل واحد منها بدوره الى شياخات عديدة . ويضم الدرب الاحمر خمس عشرة شياخة .

(٢١) الجمعية المصرية ، دراسة اجتماعية للاسرة والخدمات فى حى الدرب الاحمر ، القاهرة ، مكتب البحوث الاجتماعية ، ١٩٧٠ ، ص ٤١ .

وراء تقلص الامتداد المكانى لهذه المنطقة فى أن تكوين وحداتها السكنية وصل الى حالة سيئة لا يمكن الاعتماد عليها ، بحيث لم يعد هناك فرصة للتوسع الرأسى فى المبانى ٠

ويعتبر الدرب الأحمر واحدا من الأحياء التقليدية فى القاهرة ٠ ويمكن أن تستخدم بعض المؤشرات للدلالة على الطابع التقليدى لهذه المنطقة (القسم) مثل وجود المنشآت الدينية ، ومتوسط حجم الأسرة ، ومعدل التعليم ، والخصائص المهنية ، والحراك ، والزى ٠ فالدرب الأحمر يشتهر بمبانية الدينية ٠ فالى جانب ثلاثة وثمانين مسجدا ذات أحجام ، وتاريخ ، ووظائف مختلفة ، تضم هذه المنطقة بين أحضانها الأزهر ومسجده (٢٢) وبصرف النظر عن السلوك الدينى الفعلى لسكان المنطقة ، فان هذه المنشآت الدينية تضفى طابعا تقليديا على المنطقة لا يمكن أن يخطئه أى عابر سبيل ٠

أما المؤشر الثانى على الطابع التقليدى للدرب الأحمر فانه الارتفاع اللافت للنظر فى عدد أفراد الأسرة ٠ اذ يأتى حجم الاسرة فى هذه المنطقة فى المرتبة الثانية من حيث الارتفاع داخل مدينة القاهرة ٠ ويبلغ معدل حجم الأسرة ٥ر٣ فرد لكل أسرة (٢٣) ٠ ويتوقع المرء من هذا الرقم أن هناك ميلا نحو انجاب عدد كبير من الاطفال ٠

ويرتبط معدل الأمية ارتباطا وثيقا بحجم الأسرة ٠ فالامية تمارس تأثيرها فى منع تسرب أساليب المعيشة الحديثة بسرعة ، ومن ثم فانها تعضد الحفاظ على الجوانب التقليدية للثقافة ٠ فحوالى ٥٠٪ تقريبا من سكان المنطقة (القسم) أميون ، ولكن هناك من بين هذا العدد ٦٤٪ من النساء و ٣٦٪ من الرجال (٢٤) ٠

---

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٨٣ ٠

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٤١ ٠

(٢٤) المرجع السابق ، ص ٥٦ ٠

ومن الخصائص الأخرى للمنطقة اشتغال نسبة كبيرة من السكان فى الحرف والخدمات التقليدية فى المدينة وتصل نسبة المشتغلين بهذه الحرف ٥ر٤١٪ من اجمالى السكان العاملين بدائرة القسم • ويمكن ملاحظة ميول أخرى نحو التقليدية فى قلة الحراك الفيزيقى لسكان الدرب الاحمر • فقد أوضح مسح بالعينة على سكان قسم الدرب الاحمر أن اكثر من ثلث أرباب الأسر الذين شملتهم العينة قد ولدوا فى نفس المنطقة (٢٥) • ويدل هذا على أن نسبة كبيرة من السكان تساهم باطراد فى استمرارية تراث المنطقة بالرغم من تدفق المهاجرين عليها وتحركات أفراد آخرين من أجزاء أخرى من المدينة اليها • وما يزال المرء قادرا على أن يرى فى مناطق كمنطقة الدرب الاحمر النسوة وهن يندثرن فى ملائتهن اللف ، ذلك الزى التقليدى للقاهريات ، والرجال وهم يرتدون الجلابية ، السادة أو المخططة •

ولمحافظة القاهرة ، من الناحية الادارية ، تدرج لأنظمة الشوارع ، ورثته عن مدينة العصور الوسطى • فلقد كانت أسماء الشوارع التى تقترن بمسميات وصفية كالحارة أو العطفة أو الزقاق ، شائعة فى الأقسام القديمة من القاهرة • ولم يتغير المعنى المقترن بهذه المسميات تغيرا جوهريا منذ العصور الوسطى • فالحارة تشير فى الاستخدام الشائع الآن الى منعطف ضيق ، بينما تشير العطفة الى منعطف أضيق يتفرع عادة من الحارة ، أما الزقاق فهو تفرع صغير من العطفة • وبالرغم من أن هناك اعترافا رسميا واداريا بالتمييزات بين هذه المناطق ، الا أن المسميات تستخدم بالتبادل فى الاستخدام الشائع ، مع تفضيل اكبر لكلمة « الحارة » التى تصف الوحدة الاكبر فسكان العطفات (جمع عطفة) والازقة عادة ما يشيرون الى أماكن سكناهم على أنها حارة ، بينما لا يشير سكان الحارة الى مكان سكناهم مطلقا على انه عطفة •

ويشيع فى السكرية نفس المبدأ الخاص بالتوحد مع اطار مرجعى أوسع ، وليس بالسكرية الا منعطف واحد يتفرع من شارع العز ، وهذا المنعطف

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٧٥ •

منعطف مسدود يطلق عليه الآن « عطفة القاياتى » • ونادرا ما يشير سكان العطفة اليها بكلمة « عطفة » ، ولكنهم تستخدمون بدلا من ذلك كلمة « حارة » • اهل الحارة ، وباب الحارة ، وعيال الحارة • وربما تقول أم لطفلها « فلتلعب فى الحارة » ، ولكنها لن تقول له مطلقا « فلتلعب فى العطفة » • وتستخدم اسم « عطفة القاياتى » فى المراسلات البريدية فقط او عندما يتم البحث عن عنوان بعينه • ومع ذلك ، فعادة ما يشير السكان الى انفسهم بانهم يعيشون فى حارة السكرية • وبناء على ذلك ، فاننا سنشير الى السكرية فى هذه الدراسة كحارة وليست كعطفة •

الوحدات الاجتماعية ـ الثقافية التى تتبعها الحارة الآن

والى جانب السياق التاريخى ، يمكن رؤية السكرية كجزء من وحدات اجتماعية ـ ثقافية أخرى داخل مدينة القاهرة • ولقد قامت جانيت أبو لغد بربط أجزاء معينة من المدينة بانماط معينة هى : النمط الحضرى الحديث ، النمط الريفى الحضرى ، النمط الحضرى التقليدى (٢٦) • واعتبرت السكرية جزءا من القسم الذى وصفته بانه « حضرى تقليدى » ، والذى يضم نسبة كبيرة من سكان المدينة • وطبقا لما ذهبت اليه جانيت أبو لغد ، فان التقليدية فى سياقها المصرى :

« تشير أساسا الى استمرار الأنشطة الاقتصادية ، وأشكال العلاقات الاجتماعية ، وأنساق القيم التى كانت شائعة فى القاهرة منذ مئات السنين ، والتى بدأت تتعرض منذ بداية القرن العشرين على الاقل لتحدى أساليب جديدة فى تنظيم الانتاج والتسويق وفى تحديد الهوية والسلوك وفى تقرير تعريفات للحياة الطيبة » (٢٧) •

---

(٢٦) Janet Abu-Lughad, «Testing Theory of Social Area Analysis : The Ecology of Cairo » in : American Sociological Review, April, 1969. pp. 159-188.

(٢٧) J. Abu-Lughod, 1971, op. cit., p. 191.

ولم تحاول جانيت ابو لغد ان تربط التنميط الذى قدمته بمفهوم « الأحياء الشعبية » الشائع استخدامه منذ الأربعينات · وتشتق كلمة « شعبية » هنا من « الشعب » وهى كلمة طالما تم التاكيد عليها أثناء فترة ظهور الأيديولوجية الاشتراكية فى مصر · ويمكن أن ينطبق هذا المفهوم على ما اسمته جانيت ابو لغد « بالحضرية التقليدية » Traditional Urbanism فضلا عن بعض الأحياء الأخرى التى اعتبرتها « ريفية » و « حضرية » ويشير مفهوم « الاحياء الشعبية » الى معظم الاحياء القاهرية فى مقابل الاحياء التى تسكنها الصفوة · ولقد استخدمت كلمة « شعبية » لأول مرة من خلال وسائل الاتصال ولكنها تسربت فيما بعد الى لغة الحياة اليومية · ويرجع السبب فى تفضيل الأفراد استخدام هذه التسمية فى الوقت الحاضر الى رغبتهم فى تجنب استخدام مفهوم الاحياء « البلدى » وهو مفهوم ذو مضامين قيمية · ويستخدم كلمة « البلدى » ، كما تذهب جانيت ابو لغد ، كصفة تتضمن معنى « ابن البلد » Native فى مقابل الشخص الذى يكتسب صفات الغرب Westernized ، وتتضمن معنى الانسان الشعبى Folk فى مقابل الشخص ذى الثقافة الراقية Sophisticated والساذج Untutored فى مقابل « المحنك » والتقليدى traditional فى مقابل العصرى modern (٢٨) · وطبقا لما ذهبت اليه سوسن المسيرى فان الأفراد الذين يرفضون أن يطلق عليهم اسم الاحياء البلدى ينظرون الى كلمة « بلدى » على انها تشير الى كل ما هو قديم ، أو غير جذاب ، أو قذر أو بال · ومع ذلك ، فان الذين يعيشون فى هذه الاحياء يعتبرون ان « البلدى » هو كل شىء خير ونقى (٢٩) ·

ويمكن أن تربط **الحارة** بمفهوم اجتماعى ثقافى آخر هو مفهوم الحتة (الجيرة) · فيجب أن نميز بين السكرية الحارة والسكرية الحتة · فكل

---

(٢٨) J. Abu-Lughad, 1971, op. cit. p. 219.

(٢٩) S. Al-Messiri, The Concept of Ibn Al-Bald, Unpublished M, A Thesis, The American University in Cairo, 1970. p. 115.

سكان السكرية يتبعون نفس الحتة ونفس الحارة • والحتة هى كيان جغرافى واجتماعى على حد سواء • وهى مفهوم ذاتى صرف يعرف سكانها وسكان الحتت المجاورة فقط حدودها الجغرافيـة • وليس من الضرورى أن يعرف سكان نفس الحتة بعضهم البعض أو يدخلون فى علاقات وجه لوجه ، غير أنهم يعتبرون أنفسهم مرتبطين بعلاقات جوار • فهم يتمتعون بروح جماعية تتضح بجلاء فى أوقات الافراح والموت والشجار • وهذه الاحداث الثلاثة تعتبر مسائل عامة فالاحتفال الناجح بالزواج يحتاج الى مشاركة وتدعيم أبناء الحتة• ولا تقتصر الانوار ومظاهر الزينة على منازل الأسر التى تقيم الاحتفال ولكنها تنتشر فى الازقة والمنازل الاخرى فى الحتة على حد سواء • وعندما يلم بأحد الاسر حادث وفاة ، فان ابناء الحتة يجب ان يقفوا بجوار أسرة الميت ، عاطفيا على الاقل ، بأن يتبعوا الجنازة الى المسجد ويشاركوا فى المراسيم المختلفة • وتحتاج كلتا المناسبتان الى تجمع عدد كبير من الأفراد ذلك التجمع الـذى يحدث عادة فى منعطفات الشوارع • وتعتبر هاتان المناسبتان من المناسبات العامة ويشارك فيها كل ابناء الحتة • وتستخدم مكبرات الصوت على نطاق واسع بحيث يستطيع أى فرد أن يسمع الفرقة الموسيقية سواء أكان حاضرا الاحتفال أم لا • ويشارك كل القاطنين فى المنطقة ، أثناء مراسيم الموت ، فى الاستماع الى القرآن وتلاوته •

وتعتبر الاشتباكات المحلية بين ابناء « الحتت » المختلفة من الاحداث الخطيرة فهيبة « الحتة » تتعرض للخطر اذا اعتدى أبناء « حتة » أخـرى على احد ابنائها • ولا تعد الصراعات المحلية الواسعة النطاق شائعة فى أيامنا هذه ، ولكنها كانت فى يوم من الأيام تمثل تعبيرا هاما عن بناء القوة فى قاهرة العصور الوسطى • وما تزال هناك بقايا لدور الفتوة كحامى للمنطقة موجودة فى القاهرة • فقد أشارت سوسن المسيرى الى أن الفتوة هو حامى المنطقة من الفتوات المعادية ، والاعداد من خارج الحتة ، وهو الحامى عموما فى الكثير من موقف العراك » (٢٠) •

---

(٣٠) S. Al-Messiri, 1974, op. cit., p. 17.

وتقتصر عضوية الحتة على السكان الفعليين فى المنطقة . فالأفراد الذين لا يسكنون فى المنطقة كأصحاب المحلات التجارية ، والباعة الجائلين والحرفيين الذين يأتون الى الحتة بغرض العمل ، لا يعتبرون من أهل الحتة . وقد علق أحد أصحاب المحال التجارية فى السكرية ذات مرة قائلا :

« أنا أقضى كل يومى ومعظم ليلتى فى السكرية . ومع ذلك فلا أعتبرها حتتى . فالحتة التى انتمى اليها هى ذلك المكان الذى أترك فيه زوجتى وأولادى وانا على يقين من انهم فى أمان ولا يستطيع أحد أن يلحق بهم الأذى فى غيابى » .

ويعد مفهوم الحتة مفهوما فضفاضا ومطاطا ويمكن أن يستخدمه الأفراد الذين يسكنون فى اى منطقة بالقاهرة تقريبا . غير أن الكلمة لها معنى أكبر ودلالة أكثر فى الأحياء التقليدية . ففى مثل هذه الاحياء يستطيع المرء أن يلغى الحدود الفيزيقية **لحتة** بعينها وأن يتوصل الى اتفاق عام بين سكانها على هذه الحدود . ولا يعد المفهوم ذا معنى فى الاحياء المدنية من المدينة وهناك أنواع عديدة من الارتباطات يعتمد على خبرات الفرد ، وشبكة العلاقات . وتصورات الجيران عن المنطقة . فعند سؤال الناس الذين يقطنون فى هذه الأماكن كما حدث بالنسبة لسكان المنطقة السكنية المنشأة حديثا والتى تسمى « المساكن » السؤال الآتى : « من اى حى أنت ؟ »

Where are you from ? فسوف يجيبك الواحد منهم : « أنا أسكن فى المساكن » . ولكن الشخص الذى يسكن السكرية قد يجيب عن نفس السؤال بقوله : « انا من السكرية » ، بمعنى « انا أنتمى الى السكرية » . وبهذه الطريقة ، فان السكرية لا تعد فقط مكان للاقامة ، وانما تعد أيضا اطارا مرجعيا ، انها جزء من الفرد ، وهو يتوحد معها . ويعد هذا الارتباط القوى والاحساس بالانتماء الى الحتة من خصائص الأفراد الذين ينتمون الى الثقافة الفرعية **للحارة** .

وتتكون **الحتة** فى الاحياء التقليدية من حارة أو أكثر والتقسيمات التى

تتفرع من هذه الحارة أو الحوارى وتعتبر السكرية بالفعل **حتة** داخل شارع المعز حيث تشتمل هذه الحتة على حارة السكرية وتفريعاتها المختلفة · وطالما أن هذا الجزء بصفة خاصة من شارع المعز يعتبر جزءا تجاريا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وطالما أن أهل الحارة هم السكان الوحيدون لهذه الحتة ، فقد وجدنا أن « السكرية » تعنى كلا من **الحارة والحتة** فى نفس الوقت · فلا توجد هناك حوارى أخرى داخل هذه الحتة بالذات الأمر الذى يفسر لماذا يعد بامكاننا أن نطبق اسم المنطقة المحلية على الحارة ·

وصف السكرية وتركيبها الديموجرافى

تشتمل السكرية ، كمنطقة محلية **او كحتة** ، على منطقة ذات شأن نظرا لتاريخها ، وآثارها الاسلامية ، ومعمارها وتضم الحارة التى نهتم بها فى هذه الدراسة · ففى الحتة يوجد جامع المؤيد ، وهو واحد من أشهر المساجد المملوكية بالقاهرة والذى تم بناؤه أثناء حكم السلطان المؤيد (١٤١٢ ـ ١٤٢١ م) · وفى مقابل المسجد يوجد الحمام ويرجع تاريخه الى القرن الثامن عشر · وحتى خمسين عاما مضت تقريبا كان هذا الحمام يتكون من قسمين، قسم للذكور يقع مدخله فى شارع المعز وقسم للاناث والاطفال يقع مدخله فى حارة السكرية · وبالرغم من أن القسم الخاص بالاناث قد أزيل منذ أربعين عاما ، فان القسم الخاص بالذكور ما يزال يعمل حتى وقتنا هذا ·

وتقع حارة السكرية على بعد عشرة أمتار تقريبا من البوابة الجنوبية الشهيرة ، بوابة المتولى (٣١) · والتى ترجع الى قاهرة العصور الوسطى · وتشتمل الحارة على منزلين من المنازل التى بنيت على السور الفاطمى

---

(٣١) عندما أسس المعز القاهرة كعاصمة لملكه فى عام ٩٦٩ بعد الميلاد احاطها بسور لحمايتها به ثمانية بوابات · واطلق على البوابة الجنوبية باب **زويلة** نسبة الى قبيلة مغربية من القوات المسلحة الغازية · واكتسبت البوابة بعد ذلك أسم **بوابة المتولى** نسبة الى موظف من العصور الوسطى كان يجلس بجانب البوابة ويجمع الضرائب من الذين يدخلون الى المدينة ·

للقاهرة والتى تعتبر الآن مناطق اثرية • أما المدخل الرئيسى للحارة فهو عبارة عن بوابة ترجع الى العصور الوسطى ، ما يزال اسمها منذ هذا الوقت ـ وهو الحمام ـ منقوشا عليها • أما اسم الحارة فقد تغير مرات عديدة ، ويشير كل تغير فى الاسم الى الحارة فى مرحلة تاريخية معينة • ويوجد أول وصف لوجود السكرية فى خطط المقريزى (٣٢) • حيث أشار الى أن الحارة كانت تعرف فى القرن الخامس عشر باسم « الخلعيين » وذلك لأن سوق بيع الملابس القديمة كان يقع فى قلب هذه المنطقة • واشار المقريزى أيضا الى أن الحارة كانت تسمى قبل القرن الخامس عشر « الخشابيين » نسبة الى عمال الخشب • وعندما أصبحت المنطقة مركزا لتجارة السكر ، أطلق عليها اسم « السكرية » ولكن عندما تأسس الحمام فى القرن الثامن عشر ، أصبحت الحارة تعرف باسم حارة الحمام • وبعد فترة من هدم حمام السيدات تغير اسم الحارة الى حارة « العلايلى » نسبة الى أحد البكوات العثمانيين الذى كان يملك جزءا كبيرا من أرض الحارة • ولقد اعتبرت بقايا منزله الآن موقعا أثريا • وبعد ذلك أخذت الحارة اسم « عطفة القاياتى » وهو الاسم المكتوب الآن على لافتة الشارع الواقع فى مدخل الحارة • وتشير كلمة « القاياتى » الى طريقة صوفية كان رئيسها يمتلك منزلا فى الحارة ما يزال مركزا لاحتفالات الطريقة •

وبالحارة ثلاث أزقة مسدودة يطلق على الشمالى منها « زقاق الخلعيين » أما الشرقى فيسمى « زقاق العلايلى » وهما اسمان اطلقا على الحارة ككل فى أوقات سابقة • أما الزقاق الجنوبى فيسمى « زقاق زويلة » ، والاسم هنا مأخوذ من اسم البوابة الجنوبية للسور الفاطمى فى قاهرة العصور الوسطى •

ومن الملامح المميزة للسكرية وجود مجموعة مبانى نفيسة البيضا (١٧٩٦) والذى يتكون من الوكالة ، والربع والسبيل • ولقد ازدهر هذا الطراز من الوحدات العمرانية المركبة فى القرن الثامن عشر عندما كان يلعب

---

(٣٢) المقريزى ، الخطط والآثار ، المجلد الاول ، ص ٣٧٣ ، المجلد الثانى ، ص ١٠٢ •

دورا هاما كمركز لثلاث مؤسسات اقتصادية واجتماعية ودينية • ولقد بنيت الوكالة كاستراحة للتجار المتجولين الذى كانوا يقدمون لبيع سلعهم • ولقد لاحظ وليم لين Lane ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر • أن بالقاهرة مائتين فى هذه الوكالات ، وأن ثلاثة ارباع هذا العدد يقع فى هذا الجزء الذى يكون المدينة الأصلية (٣٣) • ولقد كانت وكالة السكرية ، بصفة خاصة ، مركزا تجاريا يتقابل فيه تجار السكر ، والمكسرات ، والبيض ، والزبدة ، والدواجن (٣٤) • وتتخذ هذه الوكالة شكل مبنى مستطيل الشكل يحيط بفناء وله مدخل عام من شارع المعز • ويتكون الدور الأرضى من الوكالة من خمس وثلاثين حجرة • وتأخذ الحجرات المقابلة للفناء شكل الأقبية ، أما الحجرات الأخرى فانها حجرات اضافية بنيت فيما بعد فى قلب الفناء ذاته • وهذه الحجرات الاضافية تمييز هذه الوكالة عن غيرها من الوكالات التى بها فناء فسيح ، وذلك لأنها خلقت ممرا طويلا يؤدى الى مدخل الوكالة • ولم تعد الوكالة مركزا للمعاملات التجارية فى أى نوع من السلع ، وانما أصبحت حجراتها تؤجر كمخازن ، وورش للعديد من انواع التجارة والحرف • ويوجد بالوكالة فى الوقت الراهن ورش للمصنوعات الجلدية والفضيات والتجارة ، ومحلات للتطريز ، وصناعة الشمع والمكانس ، فضلا عن محلات لبيع المكسرات والعطارة •

أما الربع فقد بنى أساسا لتستخدمه العامة ، كان يؤجر للاسر التى لم تكن قادرة على تأجير منزل مستقل (٣٥) • ويمثل الربع الدور العلوى من الوكالة ، وهو ينقسم الى مساكن مستقلة • وبالرغم من أن مدخل الربع

---

(٣٣) E. W. Lane, Manners and Customs of Modern Egyptian, Everyman's Library, London, 1860. (First Published 1836), p. 25.

(٣٤) على مبارك ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ .

(٣٥) وليم لين المرجع السابق ، ص ٢٥ .

يوجد فى داخل الحارة ، الا أن واجهتـه ، بنوافذها الشـبكية **ومشربياتها** الجميلة (والتى تجذب السياح والفنانين الى المنطقة) تواجه شارع المعز • وللربع مدخل واحد فقط يؤدى سلمه الى ممر تقـع على جانبيـه الوحدات السكنية • وهذه الوحدات السكنية منفصلة عن بعضها الآخر وعن المحلات التجارية أسفلها • ويتكون كل مسكن فى الربع من حجرة أو حجرتين أو ثلاث حجرات ، وبالرغم من أن بعض هذه المساكن قد خصص لسكن مزدوج ، فانها لم تستخدم كوحدتين سكنيتين مستقلتين • ولقد أضافت معظم المساكن مراحيض خاصة بكل منها ، بالرغم من أن هناك بعض الحالات التى تستخدم فيها أكثر من وحدة سكنية مرحاضا واحدا يوجد فى موقع مستقل عن أى منها • وهناك عدد كبير من الشقق تشارك فيه أكثر من أسرة ممتدة ، بل ان بعض السـكان يؤجرون حجرات من الباطن فى مسـاكنهم وذلك لنقص الاسكان فى المدينة • وهكذا نجد انه على الرغم من أن الربع يتكون من خمس وعشرين وحدة سكنية فقط ، الا انه يعيش فيه خمس وثلاثون أسرة •

أما السبيل ، وهو الوحدة الثالثة فى مجمع نفيسه البيضا ، فانه عبارة عن مبنى ملحق بالوكالة والربع • ولقد خصص هذا المكان للوظائف الدينية وأغراض البر والاحسان • فالدور الأول فى السبيل مخصص لتزويد المارة بماء الشرب البارد ، أما الدور العلوى فانه يستخدم ككتاب ، يتعلم فيـه الأطفال القرآن • ولقد ظل هذا الكتاب يعمل حتى عام ١٩٥٨ ، حيث تم اخلاء السبيل من أجل اعادة ترميمه • وهو الآن مهجور تماما ، حيث تم اعتباره موقعا أثريا •

ويعد المستوقد من معالم الحارة الهامة • والمستوقد هو وحدة توليـد الحرارة اللازمة للحمام • ويعد وجوده شيئا جوهريا لفهم البناء الاجتماعى للحارة • فالمستوقد يستخدم بجانب وظيفته الأساسية كمسخن للماء ، فى طهى الفول المدمس ، العنصر الأساسى فى وجبة الأفطار التقليدية • وتكفى كمية الفول التى تدمس يوميا فى الحارة لتزويد خمسة وعشرين الفا من الأفراد فى المدينة بوجبة افطارهم ، ويحتكر « الواحية » المهاجرون للحارة

من الواحات الخارجية والداخلية اعداد الفول المدمس وتوزيعة ٠

ولقد ظهرت بعض المشكلات الفيزيقية والصحية بسبب وجود المستوقد والأنشطة المرتبطة به ٠ وتظهر أحد هذه المشكلات بسبب غسل وتنظيف الفول ٠ حيث تؤدى اجراءات التنظيف الى سد مجارى الصرف باستمرار وقلما يمر اسبوع دون أن تغرق الحارة كلها بمياه المجارى ٠ ويطلق بعض الذكور من المتعلمين من أبناء الحارة اسم « فينيسيا » على حارتهم ، كتعليق ساخر على الفيضانات المستمرة ٠ ولقد طور سكان الحارة ، فى مواجهة هذه المشكلة ، أساليب بارعة للتغلب على فيضان مياه المجارى ٠ فهم يحتفظون بجانب مدخل الحارة ، على سبيل المثال ، بقطع كبيرة من الحجارة ، وعندما تفيض المجارى يوزعون هذه الأحجار ويستخدموها كمعابر الى الحارة ٠ ويستخدم السكان من الذكور فى الغالب الباب الخلفى للحمام ليصوا الى منازلهم ٠ وليس بغريب أن ترى بعض النسوة وهن ذاهبات الى عملهن حاملات احذيتهن فى أيديهن وهن يمشين حافيات الأقدام فى المياة ، وتتبعهن ابنة أحداهن وهى تحمل جرة من المياة العذبة ٠ وعندما تصل السيدة العاملة الى باب الحارة ، تغسل قدميها (بهذه المياة العذبة) وتلبس حذاءها وتذهب الى عملها ٠ وبينما تسبب هذه الظروف انزعاجا للكبار ، فانها تعتبر بمثابة تسلية للصغار الذين يلعبون فى برك المياه القذرة ٠ أما الأطفال الذكور الذين يكبرونهم سنا ، فانهم يشعرون بالاحباط طالما أنهم لن يستطيعوا أن يلعبوا كرة القدم فى ممرات الحارة ٠

ولأن الحارة تعتمد اعتمادا كليا على القمامة فى وقودها ، فانها معروفة لجامعى القمامة كمركز لبيعها ، وتدخل عربات القمامة الى الحارة يوميا وتفرغ عبواتها فى الطريق القريب من المستوقد ٠ وهذا هو نفس المكان الذى يلقى فيه السكان وأصحاب المحلات بفضلاتهم ٠ وتنتشر القمامة بسهولة فى المنطقة ، طالما أن المنطقة التى تلقى فيها حول المستوقد لا يحيط بها سياج ٠ وهناك حوالى خمسين رأسا من الماعز تعيش على هذه الفضلات وتساهم فى نشرها فى الحارة ٠

وبجانب المشكلات الفيزيقية والصحية التى يسببها المستوقد ، فان وجوده فى المنطقة يؤثر على البناء الاجتماعى للحارة • اذ يوجد فى السكرية تجمع مهنى من بائعى الفول المدمس وتجاره ممن يعتمد عملهم على وجود المستوقد • وبما أن اجراءات تدميس الفول تتطلب التأكد من اشتعال النار على فترات مختلفة أثناء الليل ، فان المشتغلين بهذه المهنة يجدون أنه من المناسب لهم السكن بالقرب من المستوقد • أما بائعو الفول المدمس فمعظمهم من الواحية (أبناء الواحات) بحكم المنشأ ، كما أن الكثيرين منهم يرتبطون بروابط القرابة أو المصاهرة • ولا شك أن لهذا التركيز لجماعة قرابية ـ مهنية ـ عرقية واحدة أثاره على العلاقات الاجتماعية فى الحارة •

ويوجد بالحارة بجانب المستوقد ، ثلاثة خرابات تستخدم كأماكن لالقاء المهملات (الفضلات) • ولقد تم تأجير أحد هذه الخرابات مؤخرا ليتحول الى مخزن خردة للاحذية العسكرية القديمة • أما الخرابتان الأخريان فانهما تستخدمان أساسا كملاعب للاطفال •

وتنتمى الـ ١١٧ أسرة التى تقطن الحارة الى عدد من الجماعات العرقية بناء على الوطن الأصلى والانتماء الدينى • وأكبر جماعة من هذه الجماعات هى القاهريين الذين يعرفون انفسهم على أنهم **اولاد البلد** (٢٧) ، وهم يكونوا نصف عدد الأسر فى الحارة • أما ثانى أكبر جماعة فتضم تسعة وعشرين

---

(٢٧) قدمت سوسن المسيرى تحليلا لتطور التاريخى وللمشتقات المختلفة والمضامين التى ينطوى عليها هذا المفهوم • ولقد اشارت الدراسة الى ان هؤلاء الذين يعتبرون انفسهم اولاد البلد هم اساسا من المسلمين الحضريين الذين ينتمون الى القاهرة اساسا وان الكثير من خصائصهم الموجودة الان كانت موجودة فى القرن التاسع عشر •
انظر : ـ

S. Al-Messiri, The Concept of Ibn Al-Bald. Unpublished M. A. Thesis. The American University in Cairo, pp. 119-120.

أسرة ، وهم ما يعرفون « **بالواحية** » وترتبط بهاتين الجماعتين أربع أسر تكونت عن طريق التزاوج المتبادل بين أولاد البلد والواحية وهناك ثلاث عشرة أسرة تعرف **بالصعايدة** من مصر العليا بينما تنتمى تسع أسر الى الوجه البحرى وتسمى **بالفلاحين** ٠

وهناك أخيرا ثلاث أسر تعرف بالاقباط ٠ وبالرغم من أنهم (أى الاقباط) من الصعيد الا أنهم يوصفون باستمرار طبعا لانتمائهم الدينى وليس الى مكان نشأتهم٠ وينسحب ذلك أيضا على أسرة الشيخ القاياتى٠ فبالرغم من أن اعضاء هذه الأسرة قادمون من صعيد مصر ، الا أنهم يعرفون دائما بطريقتهم الصوفية ٠

وهناك ارتباط بين الانتماء السلالى ومكان الاقامة فى الحارة ٠ فيمكن النظر الى الحارة على أنها مكونة من وحدات سكنية أو مناطق سكنية يمكن التعرف عليها من خلال سكانها ٠ ويوجد بالحارة سبع وحدات سكنية من هذا النوع ٠ ولا يتوزع السكان توزيعا متناسبا على هذه الوحدات ، بل ان اختلاف هذا التوزيع يعد أحد العوامل فى توزيع مراكز القوة داخل الحارة ٠ ويوجد فى الوحدة الأولى ، والتى أشرت اليها باسم الربع ، تسع وثلاثون أسرة ويبلغ عدد أفرادها ١٧١ نسمة ، وهى بذلك بلغت أكثر من ربع مجموع سكان الحارة ٠ وتضم هذه الوحدة جماعة تتسم بالتكامل ٠ فعدد كبير من سكانها من **اولاد البلد** ، مع وجود أقلية بينهم مكونة من اربعة أسر من الصعايدة ٠ وفضلا عن ذلك ، فان معظم السكان هنا يرتبطون بعلاقات قرابية مع أعضاء آخرين من نفس الوحدة السكنية ٠

أما الوحدة الثانية فانها تعرف باسم بيت البك ٠ ويشير اسم هذا الجزء وكذلك أسماء أقسامه المختلفة الى نمط الحياة التى كانت موجودة يوما خلف جدرانه ٠ وينقسم المنزل الى قسمين ٠ يطلق على الاول السلاملك ، ويعنى مكان اقامة الذكور ، أما الثانى فيطلق عليه الحراملك ، اى مكان اقامة الحريم ٠ وينقسم الحراملك الى قسمين فرعيين ـ حريم أول ، وهو القسم المخصص للزوجة الأساسية ، وحريم ثانى ، وهو القسم المخصص للزوجة

الثانية • ولقد كان هذا البناء الداخلى بما فيه من تقسيمات فرعية اجتماعية، شائعا فى منازل الصفوة فى القاهرة كلها • ويأوى هذا المنزل ، الذى كان مخصصا ذات يوم لسكنى عائلة واحدة ، يأوى الآن احدى عشرة أسرة يبلغ عدد افرادها ستا وستين نسمة • وكل القاطنين فيه من أولاد البلد ما عدا أسرة واحدة قبطية وأخرى من جماعة الفلاحين •

أما الوحدة المجاورة ، وهى الوحدة الثالثة ، فتعرف باسم بيت الشيخ أو بيت القاياتى • لقد شهد بيت القاياتى الفسيح فى بداية هذا القرن حياة زاهية وحافلة بالأنشطة السياسية والدينية للطريقة الصوفية ، المعروفة باسم « القاياتية » • ولقد كان أعضاء هذا المنزل يعيشون فى هذا الوقت عزلة لا تسمح لهم الا بالحد الأدنى من التفاعل الاجتماعى مع بقية أعضاء الحارة • وبالرغم من أن النساء من اهل المنزل كن على علاقة وثيقة بأعضاء الطريقة الصوفية الذين ينتمون الى القايات ، وهى قرية بصعيد مصر ، بالرغم من ذلك فقد كن منعزلات عن بقية الحارة • وكانت طقوس الطريقة تقام فى فناء المنزل وكان شيخ الطريقة يستضيف أتباعها أثناء الاحتفالات والمواسم ويحتل المنزل مساحة كبيرة من الحارة ، غير انه به اقل تجمع سكانى • فلا يسكن فى هذا المبنى الفسيح سوى خمسة وعشرين فردا ينتمون الى خمس أسر •

وتعرف الوحدة السكنية الرابعة « **بالدحدورة** » • وتتكون من خمسة مبانى ، ويقطن بها أكبر عدد من السكان ، ١٨١ نسمة يعيشون فى سبعة وعشرين أسرة • وسكان هذا الجزء خليط من أولاد البلد والواحية • ويوجد فيه أحدث منزل بنى فى الحارة ، وهو منزل بنى فى الخمسينات من هذا القرن •

أما الوحدة الخامسة فانها تتكون من مجموعة من العشش Shelters بنيت بجانب جدران المبانى الموجودة فعلا • فقد قامت العائلات الفقيرة من المنطقة ببناء عشر من هذه العشش تقريبا • وتشكل العشة نتوءا يبرز فى ممر الحارة وهى تبنى منه أحجار ضخمة مرصوصة بعضها فوق البعض الآخرى ويغطى سقفها بالقش أو شرائح من الكرتون أو الصفيح • ويطلق

على هـذه الوحـدة اسم المستوقد ، وجميـع سـكانها من الواحيـة بلا استثناء • وتضم الوحدة السادسة أيضا تجمعا من الواحية • وهى عبارة عن مبنى يشبه الربع ويطلق عليه ربع السنارى • ويضـم هذا الربع عشرة مساكن ، يقع كل خمسة منهم على أحد جانبى الممر ، وتوجد به حنفية مياه واحدة يشترك فى استخدامها كل السكان •

أما الوحدة السابعة فتتكون من مبنيين يضمان ثلاثا وتسعين نسمة تعيش فى اثنى عشر أسرة • ويتكون سكان هذا الجزء من خليط من أولاد البلد والواحية والفلاحين ، تعيش معهم عائلة واحدة •

والحارة أبعد ما تكون عن الاكتفـاء الـذاتى ، فيما يتعلق بالحاجات اليومية • فهناك بقال واحد صغير يبيع سلعا رديئة ، ولكنه فى متناول اليد ، ويعد مصدرا قريبا لتزويد السكان باشياء كالعيش ، والصابون ، والجبنة ، والكبريت وغيرها من السلع الصغيرة • كما انه مفيد أيضا فى أوقات الحاجة المفاجئة أو عندما يكون الطفل الذى يكلف باحضار شىء ما صغيرا لا يستطيع شراءها من خارج الحارة • وهناك عديد من السيدات الفقيرات اللاتى يبعن سلعا موسمية أو صنوفا من الحلوى الرخيصة وذلك فى حجراتهن أو على اعتاب بيوتهن • ويتعمد أعضاء الحارة الشراء من هؤلاء السيدات مستهدفين مساعدتهن ماليا • ولا يدخل الى الحارة سوى عدد قليل من الباعة الجائلين طالما ان السوق فى متناول اليد ، كما أن هناك بعض الخدمات التى تؤدى للناس فى بيوتهم • من بين هؤلاء بائع الزبادى الذى يقوم بجولات يومية مزودا زبائنة بالزبادى وجامعا للاوانى الفخارية الفارغـة الخاصـة باليوم السابق • ويقوم بائع الكيروسين بجولته كل صباح مستخدما عربته التى يجرها حصان وينتظر فى قلب الحارة الى حين خروج السكان بصفائحهم لشراء ما يحتاجونه • ويقوم صبى الكواء (المكوجى) أيضا بجولة على الاسر الميسورة الحال ليجمع الملابس التى بحاجة الى كى ويرد الملابس التى انتهى من كيها • وينادى بائع الجيلاتى على الاطفال بصفارته المعهودة • وكل واحد من هؤلاء الباعة الجائلين موجود فى المنطقة منذ سنوات ، وهو معروف للسكان معرفة شخصية •

ويوجد بالحارة أيضا بعض الورش • من بين هذه الورش ورشة نجارة وهى أشهر ورشة فى القاهرة لاعمال الخشب التقليدية الشبكية ، أى المشربية• أما بقية الورش فانها تضم ورشا عديدة للاعمال المعدنية ، وورشة لصناعة الشمع ، واثنين لصناعة الكرتون • ولا تستهلك منتجات هذه الورش محليا داخل الحارة ، وانما تعتبر عاملا أساسيا فى جذب الغرباء الذين لا يرتبطون بالضرورة بأى من سكان الحارة • وبعض هؤلاء الغرباء عمال فى الورش ، ويأتى ثمانية وثلاثون منهم الى الحارة يوميا من أجل العمل فى تلك الورش• غير أنهم اندمجوا فى التجمع السكانى للحارة وذلك بحكم أنهم يسكنون فى حوارى أخرى ويعيشون حياة مشابهة • ويمكن ملاحظة الغريب بسهولة فى الحارة ويتم على الفور الكشف عن مقصده من دخول الحارة • فبمجرد أن يدخل الغريب من باب الحارة ، فانهم يسألونه عمن يريد ويطلب منه الشخص الذى يسأله أن يعطيه اسم الشخص أو المحل الذى يريده •

أما من الناحية الديموجرافية ، فان السكرية تتصف بخصائص قسم الدرب الأحمر الذى تنتمى اليه • فهناك ١١٧ أسرة يبلغ مجموع أفرادها ٦٣٩ نسمة ، ومن ثم فان معدل حجم الأسرة يبلغ ٥٫٤٦ فردا • ويمكن مقارنة ذلك بمتوسط حجم الاسرة السائد فى مدينة القاهرة ككل وهو خمسة أفراد لكل أسرة • وتعتبر معظم الاسر التى تعيش فى الحارة من الاسر النووية ، غير أن ذلك لا يلغى وجود الاسر الممتدة (٣٨) • وهناك أسرتان من هذه الاسر تتعدد فيها الزوجات ، ولكن فى كلتا الاسرتين تعيش الزوجة الثانية وأطفالها فى مسكن مستقل فى منطقة أخرى • وهناك سبع وعشرون أسرة يسكن معها بعض الاقارب ، ومع ذلك فلا يوجد نمط مطرد للامتداد بين هذه الاسر • وهؤلاء الاقارب هم أقارب من خطوط أبوية فى بعض الاحيان ، ومن خطوط أموية فى أحيان أخرى • ولا يتبع نمط الاسرة الممتدة الموجودة فى الحارة حتى الانماط التقليدية للاسرة الممتدة والتى يعيش فيها سويا

---

(٣٨) ذهب كارين بترسون الى أنه بالرغم من أن الوطن العربى يتميز بوجودو الاسر الممتدة ، الا ان البيانات لا تؤكد وجود هذا النمط فى القاهرة.

انظر : Karen Peterson الصادر فى عام ١٩٦٨ ، ص ٣٥١ •

أشخاص أقارب ينتمون لجيلين اثنين ، أو التى يعيش فيها اخوة اشقاء متزوجون • وعلى العكس من ذلك ، فانها تقوم على ارتباط اقرباء غير متزوجين بأسرة معينة • فمن غير المتوقع أن يعيش الارامل والمطلقات (خاصة اللاتى لم ينجبن اطفالا) والعزاب عيشة مستقلة • فالابن غير المتزوج والابنة غير المتزوجة يستمران فى العيش مع والديهما حتى الزواج ، بصرف النظر عن السن • ويعود الرجل أو المرأة ، بعد الطلاق أو بعد موت شريك الحياة ، الى الوالدين اذا ما كانا على قيد الحياة ، والا فانه يستطيع أن يعيش مع أخية أو أخته أو أى قريب آخر • وهناك نمط آخر للاسرة الممتدة حيث يستعير أحد الاقرباء ممن لم ينجبن اطفالا أحد الاطفال من اقربائه لتربيته • ويقوم بهذه العملية الاجداد أساسا ممن يحتاجون الى مساعدة الطفل فى أعمال المنزل • وأخيرا ، فان المهاجرين لا يحضرون أسرهم معهم عادة عندما يحضرون الى المدينة لاول مرة • ويعيش كل منهم مع اقربائه فى الحارة الى أن تستقر احواله ويحصل على منزل مستقل • كما ينضم غير الاقرباء من الصبية الذين يعملون فى الورش والذين يساعدون فى بعض الاعمال الى الاسر بحيث تظهر لدينا أسرة ذات طابع معين • فهؤلاء الافراد لهم وضع خاص ، اذ على الرغم من أن بعضهم لا ينام فى منزل صاحب العمل الذى يعملون عنده ، الا أن طعامهم وتنظيف ملابسهم (غسيلهم) يكون جزءا من معيشة الاسرة • وعلى سبيل المثال ، فان الشخص الذى يمتلك ورشة أو مقهى وعنده شخص يساعده فى العمل قد يطلب من هذا الشخص أن ينام فى محل عمله ليقوم بحراسته أثناء الليل • وفى هذه الاحوال ، فان الصبى يتناول وجباته فى منزل سيده أو يرسل له الاكل الى هناك • وهؤلاء الافراد هم أساسا من المهاجرين الذين ليس لهم أقرباء مقربين فى المدينة • ومع ذلك ، ففى حالات كثيرة ينام الصبية المساعدون فى منازل الاشخاص الذين يعملون عندهم •

أما شبكة القرابة بين أعضاء الحارة فانها معقدة الى حد بعيد • فمن الـ ١١٧ أسرة التى تعيش فى الحارة لا يوجد الا ثمانية وثلاثين أسرة ليس لها أقرباء فى الحارة ، أما الباقى فان كل أسرة ترتبط بأسرة قريبة

على الاقل وبعض الاسر ترتبط بعلاقات قرابية بعدد من الاسر قد يصل الى اثنى عشرة أسرة • وهناك أربعة عوامل رئيسية لتفسير هذا النمط القرابى العامل الاول ، أن القيمة الايجارية للسكن فى هذه المنطقة رخيصة • وعندما يترك أحد الافراد مسكنه فان أهل الحارة أول من يعلم بذلك ، وعادة ما يبلغون أحد أقاربهم بذلك حيث يبدأ فى التفاوض مع مالك المسكن الشاغر • والعامل الثانى ، أن الاقارب يفضلون العيش بجوار بعضهم البعض • وعندما يبدأ أحد الابناء أو البنات مشروعا للزواج ، فان الاسرة تحاول كخطوة أولى أن تبحث عن مسكن شاغر فى الحارة أو المناطق المجاورة • ثالثا : يتبادل عدد من شباب وفتيات الحارة الزواج فيما بينهم • وبالرغم من أن الازواج الشباب لا يسكنون بالضرورة فى الحارة ، فان آباء هؤلاء الازواج يخلقون نمطا لعلاقة النسب بين سكان الحارة • رابعا : يكشف المهاجرون من أجزاء مختلفة من مصر عن ميل للعيش بالقرب من مهاجرين آخرين من نفس موطنهم الاصلى (٢٩) •

وبالرغم من وجود جماعات مختلفة فى الحارة ، الا أن التناقض الرئيسى يقوم بين **الواحة** و**أولاد البلد** • فالواحية يشكلون جماعة قوة فى الحارة ، وذلك لأن معظمهم ـ على عكس الجماعات الاخرى ـ يشتغلون بنفس المهنة ، ويأتون من قرى متجاورة ، وترتبط بين أغلبهم روابط القرابة الدموية أو المصاهرة • وهكذا ، فان الواحية هم الجماعة العرقية الوحيدة القادرة على تكوين كتلة متماسكة أمام « أولاد البلد » •

ويمكن تفسير التدرج المهنى فى الحارة من خلال ثلاثة مفاهيم رئيسية

---

(٢٩) انظر حول هذا الموضوع مقال حاتيت أبو لغد بعنوان :
«Migrant Adjustment to City Life : The Egyptian Case».
والمنشور له ترجمة فى الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب .
(المترجم)

هى : الموظفون ، وأهل الصنعة ، وأهل الكار • والموظفون هم العاملون بالحكومة الذين يتقاضون مرتبا شهريا محددا أو معاشا عندما يحالون الى التقاعد • ومن بين ٣٣٢ فردا عاملا فى الحارة يوجد أربعة عشر موظفا فقط (بنسبة ٤ر٢٪) • وبالرغم من أنهم يتقاضون مرتبات ثابتة ، الا أنهم لا يعيشون حياة أفضل وهم يعانون دائما من ضوائق مالية • فمعظمهم من صغار العاملين ذوى المرتبات المنخفضة ممن يعملون فى المصالح الحكومية المحلية •

أما أهل الصنعة فانهم أهل الحرف • هؤلاء هم الافراد الذين اكتسبوا مهارات فردية ، ومن ثم فان دخلهم مضمون طالما أنهم يمتلكون القدرة على استخدام مهارتهم • ويبلغ عدد الافراد الذين يصنفون كأهل صنعة ١٤٢ فردا ، بنسبة ٨ر٤٢٪ من مجموع العاملين بالحارة • أما الحرف التى يشتغلون بها فتشمل النجارة ، والاشغال المعدنية ، وصناعة المعدات ، والمصنوعات الجلدية •

وتضم الفئة الثالثة ـ أهل الكار ـ ١١٨ فردا (بنسبة ٥ر٣٥٪ من مجموع العاملين بالحارة) • وهم يشتغلون بالمهن التى لا تحتاج الى مهارات فنية ، ومن ثم فان هذه الجماعة تتكون من الباعة الجائلين ، وبائعى الفول المدمس ، والعاملين فى المقاهى والخدمات المحلية • كما تضم هذه الفئة أيضا « العربجية » ، ولا تضم سائقى السيارات • ومن الشائع بين أهل الكار أن تساعد الزوجات والأطفال من الاناث فى العمل • ولقد اشتمل عدد السكان العاملين فى الحارة (والذى أشرت اليه من قبل) على ثمان وخمسين سيدة من هذا النوع (بنسبة ٥ر١٦٪ من مجموع العاملين) •

ومن مجموع السكان العاملين ، يعمل ١٤٢ فرد (بنسبة ٨٨ر٤٢٪) داخل الحارة نفسها (بما فى ذلك الثمان وخمسين سيدة) • ويبلغ عدد الذكور الذين يشتغلون ببيع الفول المدمس ثلاثة وخمسون فردا (بنسبة ١ر٦٣٪ من مجموع العاملين) ويفرض عليهم عملهم أن يدمسوا الفول

ويعدوه داخل الحارة ثم يسوقونه كباعة جائلين خارج الحارة • ويعمل ست عشرة فردا (بنسبة ٤ر٨٪) فى الوكالة التى لا يبتعد مدخلها الرئيسى عن الحارة • أما أولئك الذين يعملون فى اماكن خارج الحارة فان معظمهم يعمل داخل حدود مدينة القاهرة القديمة : حيث يعمل منهم أربعون فردا • (بنسبة ١٢٪) فى الدرب الأحمر نفسه ، بينما يعمل ست وستون آخرون (بنسبة ٩ر١٩٪) فى أحياء مجاورة • أما باقى الافراد العاملين من ابناء الحارة وعددهم ثمان وستين فرد (بنسبة ٥ر٢٠٪) فانهم يرتبطون بأعمال خارج القاهرة الاسلامية (قاهرة العصور الوسطى) •

ولا يوجد الحراك السكنى Residential mobility الى داخل الحارة أو نحو الخارج الا فى أضيق الحدود • فقد أمضى واحد واربعون رب أسرة ، من بين عدد الاسر البالغ ١١٧ أسرة ، عمرهم كله داخل الحارة • بينما لم يبلغ عدد الاسر الموجودة فى الحارة منذ ست سنوات أو أقل الا ثمانية عشر أسرة فقط • أما القادمون الجدد الى الحارة فان لهم بالفعل أقارب يعيشون هناك • ويمكن ان نرجع استقرار سكان الحارة ، رغم حالة المساكن السيئة ، الى مشكلة الاسكان المتفاقمة فى المدينة •

ويعيش أربعون بالمائة من اسر الحارة فى مساكن من حجرة واحدة ، وبعض هذه الاسر تضم عددا من الافراد قد تصل الى سبعة ، بينما يعيش واحد واربعون بالمائة من الاسر فى مساكن مكونة من حجرتين (٤٠) • أما اولئك الذين يعيشون فى مساكن من ثلاث حجرات فانهم يشكلون خمس عشرة بالمائة من اسر الحارة •

ويصل عدد المساكن التى تشترك مع مساكن أخرى فى مرحاض واحد الى اكثر من النصف • وتبلغ نسبة المساكن التى لا توجد بها مياه جارية

---

(٤٠) فى عام ١٩٦٠ كانت نصف المساكن المشغولة تقريبا فى مدينة القاهرة تتكون من حجرة واحدة فقط بمتوسط أربعة افراد لكل مسكن • انظر دراسة جانيت ابولغد ، ١٩٧١ ، ص ١٦٤ •

حوالى واحد وستين بالمائة تقريبا ، وذلك لأن شبكة المياه لا تمتد الى معظم الوحدات السكنية • ويعتمد سكان هذه المساكن التى لا تصلها المياه على شراء الماء بالصفيحة من المساكن الاخرى التى توجد بداخلها توصيلات مياه جارية • ولقد ابتكر بعض السكان أساليب لتوصيل خراطيم بين الادوار عبر النوافذ ، وذلك لتقليل الجهد المبذول فى حمل صفائح المياه • ولقد أدخل أحد سكان الربع صنبورا للمياه الى مدخل الربع وأصبح يتعيش منه عن طريق بيع المياه للناس •

ويعتبر تزويد الحارة بالكهرباء أفضل نسبيا من تزويدها بالمياه • فحوالى واحد وخمسين بالمائة من الوحدات السكنية لا توجد بها كهرباء وهى تعتمد أساسا على لمبات الكيروسين • وبالرغم من ذلك ، فان احدى وعشرين أسرة تقتنى أجهزة تليفزيون ، واستخدام هذه الاجهزة ميسور لكل الحارة تقريبا •

أما عن معدل الامية فى الحارة فانه مرتفع نسبيا • فحوالى ستون بالمائة من الافراد فى سن المدرسة أو أكثر من ذلك أميون • أما نسبة الذكور والاناث من الاميين فتبلغ ٦١٪ للذكور و ٥٩٪ للاناث ، وهما نسبتان أكثر تقاربا من نظريتهما فى باقى المدينة • وتكمن أحد الاسباب الممكنة لهذه الخاصية فى أن أهل الحارة يشجعون الشباب على أن يمتهن كل منهم مهنة معينة ويبدأون ذلك بأن يعملوا كصبية عند أحد الحرفيين • وبالرغم من أن السنوات الست الاولى من التعليم الزامية ، فان سبعة من أطفال الحارة من هذه الجماعة العمرية لم يذهبوا مطلقا الى المدرسة • ومن الاشياء الشائعة أن يترك الاطفال وخاصة الاناث منهم المدرسة بعد الصف الرابع الابتدائى • ويترك نصف الفتيات الملتحقات بالمدرسة التعليم قبل وصولهم الى الصف السادس الابتدائى • واذا ما أضفنا عدد أولئك الذين لم يكملوا تعليمهم الابتدائى الى نسبة الاميين ، فان النسبة سوف تتزايد بشكل ملحوظ • وقد كشف البحث عن فرق جوهرى بين عدد التلاميذ فى المرحلة

الابتدائية وعددهم فى المرحلة الثانوية • فلا يكمل الى المرحلة الثانوية من التلاميذ الا نسبة تقل عن الثلث •

بعض مظاهر الادراك الشعبى للحارة

بالرغم من أن سكان الحارة يعون بشكل مبهم الاهمية التاريخية للحارة ، الا أنهم لا يعرفون تفاصيل تاريخية محددة عنها • ويميل كبار السن الى الاعتقاد بأن قسم الدرب الأحمر ككل قد مر بالعديد من الاهوال ادت الى أن يصل الى الحالة الاجتماعية والفيزيقية التى عليها الآن • ومن بين المآسى التى يتذكرها الناس جيدا بالمنطقة انهيار مبنى على من فيه أثناء حفل زواج • ولقد قتلت هذه الحادثة المؤسفة مئات من الافراد بما فيهم العريس والعروسة ، وكان الدم فى كل مكان ، على ما يقولون • ومن بين المآسى الاخرى التى يتذكرها الناس جيدا سقوط قنبلة على هذه المنطقة المزدحمة بالسكان أثناء الحرب العالمية الثانية ، ومرة اخرى ، كان الدم فى كل مكان ، • ولقد شهدت هذه المنطقة ، طبقا للتفسير الشعبى ، الكثير من اراقة الدماء فى شوارعها ولهذا اطلق عليها الدرب الاحمر • ومع ذلك ، فالحقيقة الواقعية أن الربط بين الدرب الأحمر واراقة الدماء ليس له وزن كبير • فطبقا للبيانات التاريخية ، اكتسب الدرب الأحمر هذا الاسم لأنه كان مقر سكن القوات اليونانية التى التحقت بالجيش الفاطمى • ولما كان هؤلاء اليونانيون ذوى وجوه حمراء ، فقد عرفت المنطقة باسم الدرب الأحمر (٤١) •

وترتبط كل الابنية الفيزيقية بالحارة بتراث اسطورى أو خرافى • ويتذكر كبار السن هذه الحكايات الشعبية وينقلونها الى الصغار وهم يخلقون بذلك تراثا شفاهيا خاصا بهم يشترك فيه سكان الحارة فقط • ويتداول الاطفال فى السكرية القصص الشعبية المرتبطة بمعظم المبانى ،

---

(٤١) الجمعية المصرية ، ١٩٧٠ ، مرجع سابق ، ص ١٦ •

خاصة المبانى المهدمة · فالسكان يعتقدون أن أى مكان ارتبط بحادثة ترتب عليها موت بعض الناس يسكنه عفريت يتردد الى نفس المكان كل مساء · وهناك أربعة أماكن من تلك التى تنسج حولها الاساطير ، ثلاثة منها عبارة عن خرابات ، أما المكان الرابع فهو منزل مات به رجل من جراء صدمة كهربائية · ويعلم الناس أطفالهم أن يرددوا عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » كلما مروا بأى من هذه الاماكن ليلا · والشجرة الوحيدة فى الحارة ، وهى شجرة نخيل ، يقال أنها مسكونة ببومة تزورها مرة كل عام · وعندما تنعق هذه البومة فان نعيقها يعتبر نذير سوء بأن شخصا ما من الحارة سوف يدركه الموت · ويعتقد أهل الحارة بأن مئذنة المؤيد التى يمكن الوصول اليها عن طريق الحارة تسكنها حية تقوم على حراستها وتهاجم أى شخص يحاول الصعود الى قمة المئذنة ·

ويعتبر الربط بين الأماكن والمبانى المختلفة وبين الكائنات فوق الطبيعية شيئا مألوفا وشائعا فى كل الأحياء القديمة بالقاهرة · ولقد قام جاير أندرسون Gayer-Anderson بنشر عدد من القصص الشعبية التى جمعها وهى تتصل بالمنزل القديم المجاور لمسجد ابن طولون · وفى أحد هذه القصص بدأ الراوى قصته بالعبارة التالية :

« لكل منزل قديم ··· اساطير غريبة ترتبط به وهى برغم ارتباطها بالماضى الا أنها تحفظ فى صدور الناس وتنتقل من جيل الى جيل » (٤٢) ·

وتوجد فى السكرية واحدة من هذه الأساطير وهى تحكى عن الحمام العام للسيدات فقد كان الحمام ، قبل أن تتم ازالته ، مزينا بطبقات من الصينى والرخام ، وقباب عديدة من الزجاج المنحوت الأملس · وكان وقت الذهاب الى الحمام يمثل مصدر سرور عظيم لكل من النسوة والأطفال من أبناء الحارة

---

(٤٢) Gayer-Anderson, Legends of Beit-Al-Krettya, Ipswich : East Anglian Daily Times, 1951. pp. 59-61.

الذين كانوا يقضون فى الحمام عادة ساعتين أو ثلاث ساعات . وكانوا يسلمن أمرهن ، داخل الحمام نفسه ، **للبلانة** ، وهى امرأة متخصصة تقوم بتدليكهن، وازالة الشعر من أجسامهن ، وتمشط رؤسهن . وتذهب السيدات الى الحمام بصفة خاصة بعد الولادة لكى يتطهرن على أيدى **البلانة** . وقبل زفاف العروس يحجز الحمام لها ولقريباتها وصديقاتها لكى تبدو كل منهن جميلة أثناء الزفاف . وتقول الأسطورة أن عروسا قد اختفت ذات يوم أثناء حمام زفافها ويعتقد الناس ان كائنا فوق طبيعى ، وهو جن شرير يسكن الحمام ، قد اختطفها فى ذلك اليوم . وبعد هذه الحادثة بثلاث سنوات ، حدثت حادثة مشابهة . وعندما يحدث هذا فان بخار الماء ينتشر فى أرجاء المكان وتختفى العروس ولا يظهر لها من أثر الا شعرها وهو يطفو على الماء . ويقال انه نتيجة لهذه الحوادث هجر الزبائن الحمام . وقد ثار مدير الحمام ثورا لكى يسترضى الجن ، ولكن الجن استولى على الثور وبدأ فى الاستيلاء على العرائس . ولهذا السبب أغلق الحمام أبوابه ، ثم هدم بعد ذلك ، وبنيت مكانه ابنية أخرى (٤٢) .

ويرتبط بالربع قصص عديدة . فالبعض يعتقد أن تجار الوكالة كانوا يستخدمون الوحدات السكنية فى الربع كمخازن للحبوب أو كحجرات تخزين . كما يعتقد عدد كبير من الناس أن الربع كان مسكنا لنفيسة البيضا ، زوجة مراد بك ، آخر حكام المماليك . ويقال انها كانت تشغل ذلك الجزء من الربع الذى به المشربية أو الشبابيك الشعرية،والذى يواجه شارع المعز وهو يعرف الى الآن باسم القصر . ويعتقد الناس أن الحجرات المحيطة بالربع كانت بمثابة

---

(٤٢) لاحظ ادوارد لين أن الناس يعتقدون أن الحمام من الاماكن المفضلة لسكنى الجن ، ولهذا فانه عندما يكون الشخص على وشك الدخول للحمام فان عليه ان يتلو بعض الصلوات ليحمى نفسه من الارواح الشريرة ، ويجب عليه أن يبدأ دخول الحمام بوضع قدمه اليسرى فوق عتبة الحمام .

انظر : ادوارد لين ، والمصريون المتحدثون ، ١٨٦٠ ، ص ٣٣٧ .

مساكن لخدم نفيسة البيضا ، وقد وهبتها لهم بعد مماتها • ويعتقد آخرون أن الربع كان سجنا لأسرى السلطان المؤيد (٤٤) •

وسكان الحارة على وعى بمزايا ومساوىء حياتهم فى الحارة • وتلخص العبارات التالية التى ذكرها أفراد مختلفون من الحارة نظرتهم لما تعنى الحياة داخل الحارة بالنسبة للفرد : ـ

ـ « لايهم اذا ارتديت زيا فاخرا هنا طالما أن الناس يعرفـــون من أنت (سيدة عجوز) •

ـ مما لا شك فيه أن هناك شوارع أنظف يستطيع المرء أن يعيش فيها ، ولكن فى الحارة تستطيعين أن تربى شاة وبعض الماعز والطيور الداجنة (سيدة متوسطة العمر)

ـ ان الحارة تفسد الأطفال ، خاصة اذا كانت شوارعها مغلقة (سد) • ان الأطفال يعرفون بعضهم بعضا وكذلك الآباء • انها تشبه القرية ـ فالناس جميعا مترابطون ، اننى اضرب أطفالى لأنهم يلعبون فى الحارة ويوسخون ملابسهم • انهم يحتاجون الى جهد خرافى لتنظيفهم • كما أنهم يتعلمون أيضا كلمات قبيحة (أم لستة أطفال) •

ـ عندما ينادى طفل على طفل آخر ، فانه يجرى لكى يلعب ، وحتى اذا كان جالسا لتناول الطعام ، فانه يترك طعامه • ولو كنت اسكن فى شقة ، فانه سيكون باستطاعتى أن أقفل بابى وأربى أطفالى بالطريقة التى أريدها • انه من الصعب أن نفعل ذلك فى هذا المكان (أم شابة) • .

ـ ان أطفال الحارة لا يمكن التحكم فيهم • واذا ما كانت الأسرة تعيش

---

(٤٤) استخدم جامع المؤيد فى القرن الخامس عشر كسجن ، أما الربع فلم يبن قبـــل القـــرن الثامن عشر •

فى شارع ، فان الأم سوف لا تسمح لطفلها بأن يلعب فيه خوفا عليه من السيارات (أم متوسطة العمر) ٠

ـ قد يكون من بين سكان الشقق (*) أناس سيئون أيضا ٠ ويجد المرء أفضل الناس فى الحوارى بالرغم من ملابسهم غير الفاخرة (سيدة متوسطة العمر) ٠

ـ ان الذى يعيش فى الحارة ، خاصة فى الحارة المغلقة (السد) ، كأنما يعيش فى مملكته الخاصة ٠ فالرقابة على المكان محكمة ، ولا يستطيع أى غرباء أن يتطفلوا عليه ٠ ويعرف الغريب بمجرد دخوله من باب الحارة ٠ ويستطيع المرء أن يدخن الحشيش بحرية تامة (شاب أعزب) ٠

ـ أين يمكن أن نعثر على مكان مثل هذا بهذه القيمة الايجارية ؟ ويتمنى اى شخص أن يعثر على مكان فى الحارة ٠ (أب لخمسة أطفال) ٠

ـ أنا لا أود أن أترك الحارة ٠ فأين أستطيع أن ألعب كرة القدم (ولد صغير) ٠

ـ أنا أحب شقة أختى فى العباسية ٠ انها أكثر نظافة ٠ ويوجد هناك مياه جارية وحوض للاستحمام ٠ ولكنى اشعر بالملل عندما أذهب اليها ٠ ولا أستطيع أن أمكث هناك أكثر من يوم واحد ، فلدى هنا مزيد من المرح (فتاة صغيرة) ٠

ـ صحيح أنك تسمعين الأطفال فى الحارة وهم يرددون كلمات قبيحة ، ولكن اذا لم يتعلموا هذه الكلمات ، فانهم سوف يداسون بالأقدام (شابة) ٠

(*) المقصود بالشقق المساكن خارج الحارة ،أو فى الاحياء الراقية فى المدينة حيث تسكن الاسرة فى مسكن يمثل وحدة من عمارة كبيرة

(المترجم)

ـ هناك أشياء أسوأ تحدث فى الشقق · والفرق الوحيد أن كل سلوك فى الحارة يلاحظه الناس بسرعة · أما فى الشقق فان الأمور تحدث فى الخفاء (شاب) ·

ويعنى مفهوم الحارة بالنسبة للذين لا يسكنون فيها ، معان اجتماعية مختلفة · فنظرتهم النمطية الجامدة للحارة كمكان للسكنى تتميز بأنها نظرة سلبية · فهم ينظرون الى الحارة من الناحية الفيزيقية أنها شوارع قذرة ، وضيقة ، ومزدحمة ، وغير ممهدة · وهم يعتقدون أن الحارة غير قادرة على التكيف مع التكنولوجيا الحديثة · كما أنهم يعتبرون أن مرافقها العامة ، كصيانة الطرق ، وجمع القمامة ، ومرافق المجارى ، فقيرة ودون المستوى ، كما أنها مظلمة ، وبالية ، وقذرة ، ومليئة بالحشرات · وينظر الى سكان الحارة من الناحية الاجتماعية ، على أنهم عدوانيون ، وصاخبون ، ويتسم سلوكهم بالفجاجة · وهم يربطون بينهم وبين الرذيلة ، والسلوك المنحرف، وتعاطى المخدرات ، والاتجار فى السلع المهربة · وينظر الى أطفال الحارة على أنهم يرتدون ملابس قذرة ورثة ، وتعوزهم آداب السلوك ، وهم يثيرون الاشمئزاز · والمحقق ، أن القول بأن الشخص « تربية حوارى » يعتبر ضربا من الاهانة ، اذ أن الحارة توحى بمكان وأسلوب للحياة غير مرغوب فيهما · ولقد اتضحت الطريقة التى ينظر بها السكان خارج الحارة الى الحارة من خلال رد فعل أحد وكلاء الوزارة تجاه اهتمامى بالتنشئة الاجتماعية للاطفال فى الحارة · فقد جاء رده على النحو التالى :

« هل هؤلاء الأطفال يحظون بأى قدر من التنشئة الاجتماعية ؟ »
(ويعنى قوله هذا ضمنا ، هل عندهم أى آداب للسلوك ؟) ·

وبالرغم من أن من يسكنون خارج الحارة يستخدمون عبارة « تربية حوارى » لتعنى أن سكان الحارة تعوزهم آداب السلوك ، فان أهل الحارة لا يعتبرون هذه العبارة اهانة لهم · لقد علق واحد من أبناء الحارة الحصفاء ممن رأوا أساليب أخرى للحياة بقوله : ـ

« تشير عبارة « تربية حـوارى » الى الشخص الـذى يردد عبارات بذيئة ، بصرف النظر عن وضعه ، أو الموقف الموجود فيه • فسيدات الحارة ـ على سبيل المثال ـ لا يستنكفن عن التحدث بلغة بذيئة أمام أطفالهن » •

ويجيب سكان الحارة ، كرد مباشر على عبارة « تربية حوارى » بعبارة « تربية شوارع » • وينطبق اللفظ هنا خير انطباق على البغايا والمجرمين ، ولكنه يشير أيضا الى أن الشخص الذى يربى فى الشارع ليس له منزل • ولا يعتبر الممر الموجود بين مبانى الحارة شارعا ، بل يعد امتداد للمنزل ويشكل جزءا متكاملا من البيت • ويمكن التعرف على الطفل الذى يلعب فى الحارة ، أما الذى يلعب فى الشارع فلا أحد يعرف من هو • وعندما يعتدى أحد الكبار أو أحد الأطفال على طفل بالضرب ، فان مؤيدى كل طرف يندفعون الى مكان الحادث وتنشب مشاجرة كبيرة على الفور •

وبالرغم من أن الغريب قد ينظر الى الحارة على أنها تتكون من جماعة متجانسة لها أسلوب واحد فى الحياة ، فان الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بنظرة سكان الحارة الى بعضهم البعض • فلديهم آراء نمطية جامدة تصف الجماعات المختلفة فى الحارة • ويقوم هذا النمط من التدرج الداخلى أساسا على تدرج المكانة المرتبط بنمط المسكن الذى يسكنه الشخص وجماعته العرقية •

ويمثل سكان الربع فى نظر الآخرين أدنى سكان الحارة مكانة ويرتبط بهذا النوع من السكان بعض الوصـمات الاجتماعية • فهناك اعتقـاد بأن سكان الربع حساسون تجاه بعضهم البعض وذلك بسبب ازدحامهم فى مكان واحد • ويقال أنهم يتدخلون كثيرا فى شئون بعضهم البعض ، ويتشاجرون باستمرار ، ويتسم سلوكهم بالفجاجة والصخب • ويقول السكان من خارج الربع أن أهل الربع يعيشون فى حجرات مستقلة وليس فى شقق ، وهم عادة ما يعيشون حياتهم الاجتماعية خارج هذه الحجرات • فهم يجلسون على أبواب حجراتهم يتبادلون أطراف الحديث • وهم يتدخلون فى الحياة الخاصة لبعضهم البعض ، وينغمسون فى مشاجرات لفظية وبدنية ، ويمثل الربـع

بالنسبة لسكان الحارة المثال الصارخ للازدحام • وعندما بدأت بحثى ، كان الناس ـ وحتى أبناء الحارة ـ يخبروننى باستمرار بأن الربع يضم من مائة الى مائتى أسرة • واكتشفت بعد ذلك أن الربع يضم ستا وثلاثين اسرة فقط ، وهو عدد من الأسر كبير جدا بالنسبة للمكان المتاح لهم •

ويعى سكان الربع الدلالات النمطية الجامدة المرتبطة بالسكن فى الربع، ولكنهم يعتبرون أنفسهم القاهريين الحقيقيين ، أو أولاد البلد ، وتعتبر بقية الحارة بالنسبة لهم ، مع استثناءات قليلة ، مساكن **للواحية** من المهاجرين الذين يعيشون فى اكواخ ويعملون كباعة جائلين • والواقع ، كما رأينا ، أنه لا يسكن الحارة الا تسعا وعشرين أسرة فقط من أصول واحية ، وأن خمسا من هذه الأسر فقط تعيش فى اكواخ •

ويعتقد كبار السن من الجنسين ممن ولدوا فى الحارة أو عاشوا فيها طيلة حياتهم ، أن الحياة الاجتماعية والظروف الفيزيقية للحارة قد تدهورت الى حد بعيد • فقد كانت الحارة فى العقود الأولى من هذا القرن ، مليئة بأولاد البلد ، مع بعض جماعات المهاجرين الذين كانوا يشكلون أقلية خاضعة ذات مستوى أدنى • ويتذكر كبار السن الحارة عندما كانت حياتها تتركز حول بعض الأسر ذات المكانة العالية ممن كانوا يعطفون على الأسر الفقيرة ويمدون لها يد العون • فقد كانت هذه الأسر الميسورة الحال تفتح بيتها دائما للمحتاجين ، وكانوا يوزعون فى المناسبات الخاصة الطعام ، أو اللحم ، أو الملابس (٤٥) • ولقد تركت معظم هذه الأسر الغنية الحارة فى هذه الأيام • واصبح الباقون بالحارة أفقر عن ذى قبل وهم الآن يعيشون أسلوب حياة عادى •

والعلامة الرئيسية للتدهور الاجتماعى فى الحارة فى نظر كبار السن من أبنائها هو المكانة المتغيرة للواحية كجماعة عرقية مهاجرة • فالواحية الذين

---

(٤٥) كتب الروائى نجيب محفوظ عن الحياة فى الاحياء التقليدية فى العقود الاولى من هذا القرن ، وقد عرض شواهد حية تشير الى هذا النمط من السلوك •

كانوا ذات يوم أقلية عرقية فى الحارة ، يكتسبون الآن قوة من حيث العدد والثروة وهم يتغلغلون باستمرار بين بقية السكان • ولم يكن بالحارة ـ أصلا ـ سوى عدد قليل من الواحيـة ولم يكن لهـم اهتمام بتجارة الفول المدمس وانما كانوا يعملون كبوابين • وكان يتم تأجيرهم فى الغالب لحمل أجولة القمح الى المطاحن والرجوع بالدقيق • وعندما كان اى فرد يحتاج الى مساعدة فى حمل اشياء اشتراها ، فانه كان يدعو ببساطة أحد الواحية من المقهى القريب من الحارة حيث كانوا يتجمعون • ويتذكر **أولاد البلد** الوقت الذى كانوا يصفعون فيه الواحية على « قفاهم » لأتفة الاخطاء • ويعتبر هذا الصفع على القفا أشد سلوك مهين يمكن أن يتعرض له أحد الذكور • وكان الواحية مصدرا للسخرية لأنهم كانوا يتحدثون العربية بلهجة مختلفة عـن أولاد البلد • وأصبحوا عرضة لمزيد من السخرية عندما بدأوا يعملون فى جمع القمامة • وتقول أحد الأساطير المتداولة فى الحارة أن الواحية اشتغلوا بجمع القمامة على أمل أن يحسنوا مكانتهم بايجاد خاتم سليمان المفقود •

وبمجرد وأن رسخت أقدام الواحية فى تجارة الفول المدمس ، رسخت اقدامهم أيضا بين **أهل الكار** والذين يعملون فى أعمال تتطلب مهارة فنيـة بسيطة ، وهم جماعـة لا تعد ، فى ضـوء اعتبـارات التدرج المهنى ، أكثر الجماعات احتراما • ويتمتع أى عضو من أهل الصنعة (التخصص الحرفى) باحترام خاص لمهارته الفردية ، بصرف النظر عن ثروته • أما الشخص الذى ينتمى لأهل الكار فان عليه أن يحصل على هذا الاحترام من خلال ما يحققه من ربح • ويستطيع أحد أبناء أهل الكار ان يتعلم حرفة ، ولكن من غير المتوقع أن ينتمى أحد أبناء اهل الصنعة الى أهل الكار أو يأمل فى ذلك طالما أن الاشتغال بعمل كطهى الطعام وبيعه هو عمل يستطيع أى فرد أن يؤديه • ولقد اتجه الواحية الى هذا العمل أصلا لأنهم قدموا من قراهم فى سن صغيرة لم يتح لهم فيها التدريب على حرفة من الحرف • فمثل هذا التدريب يجب أن يبدأ فى سن مبكرة • ولكن عندما استطاع الواحية أن يجمعوا ثروة بدأوا يتمتعون بقوة أكبر وهيبة أكبر فى الحارة • فهم لم يعودوا خاضعين كما كانوا

ذات يوم • وبالرغم من عدم وجود نمط واضح من التمييز بين أولاد البلد والواحية ، الا أن مظاهرالتعصب التي تكنها كل جماعة تجاه الأخرى تظهر بصفة خاصة فى أوقات الصراع • فعندما نشبت معركة بين أحد الواحية وأحد أولاد البلد أثناء اجراء بحثى ، علقت سيدة فى منتصف العمر على المسألة برمتها بالمثل الشعبى التالى والذى يلخص مشاعر أولاد البلد تجاه الواحية (٤٦) •

ومن الناحية الأخرى ينظر الواحية الى أولاد البلد على أنهم عاجزين عن القيام بالعمل الذى يقومون هم به • فأعمالهم تتطلب تحملا شديدا للحرارة التى يعتقدون أنهم يستطيعون تحملها لأنهم قادمون من أحد مناطق مصر الحارة • ويرى الواحية أن أولاد البلد أقل قدرة على حماية نسائهم وبناتهم• فهم يسمحون لهن بارتداء ملابس « خليعة » • ويعتقد الواحية ان النسوة « المتحررات » لا يوجدن الا بين أولاد البلد ، ولا يمكن أن يوجدن بين الواحية • وينظر الواحية الى أطفالهم على أنهم أشد ذكاء وأكثر قدرة على التعلم من أولاد البلد • ومع ذلك ، فانهم يشعرون أن أطفالهم معرضين دائما للاختلاط بغيرهم ومن الممكن أن يفسدهم أطفال أولاد البلد • والحقيقة انه من الشائع بين الواحية أن يرسلوا أولادهم ، الذين يشعرون أن أطفال أولاد البلد يغرونهم باهمال واجباتهم المدرسية ، الى الواحات ليعيشوا مع احد الأقارب حيث يكونون أقل عرضة للهو وأكثر قدرة على التحصل فى المدرسة •

ادراك سكان الحارة للمدينة

يعتبر سكان الحارة أساسا سكانا راجلين ، من حيث أنهم يعتمدون بصفة أساسية على المشى كوسيلة للانتقال سواء داخل أو خارج الحارة • وقد يجد الشخص غير المدرب المشى صعبا ، وذلك لأن شوارع القاهرة القديمة

---

(٤٦) «He was at the botton and he rose, he should thank Allah that he did not defecate in the Process».

مكتظة بالراجلين ، وبالمركبات ، والباعة الجائلين • ولقد اخذت بعض الوقت لأتعلم كيف أساير سكان الحارة الذين اصطحبتهم فى جولاتهم سيرا على الأقدام فى المدينة • وكنت غالبا ما أصطدم بالناس وأتحرك ببطء شديد • ولقد أعطى لى بعض الاخباريين النصيحة التالية بعد أن لاحظ قلة حيلتى .

« عندما تسيرين فى شارع مزدحم عليك أن تنحرفى باحد أكتافك الى الأمام ، وأن تتحركى بسرعة بشكل لولبى • وعليك ان تدربى عينيك لتبصرى فى كافة الاتجاهات فى ذات الوقت » •

ويختلف ادراك اهل الحارة للمدينة كما يختلف وعيهم المعرفى الى حد ما باختلاف خبراتهم الفردية ، بالرغم من أنه يمكن التعرف على بعض النماذج العامة لدى بعض الجماعات كالأطفال ، والنساء ، وباعة الفول المدمس •

تنحصر خبرة الطفل فيما قبل سن المدرسة بالمدينة فى فلك أقربائه من الاناث ، وبصفة عامة أمه أو أخته الكبرى وبمجرد وان يبدأ الطفل فى الحبو فانهم يسمحون له بالحبو خارج المنزل واللعب فى ممر الحارة بالقرب من مسكن الوالدين • وعندما ينمو أكثر ويصبح قادرا على فهم القيمة الشرائية للنقود ، فانهم يعطونه قرشا ليشترى لنفسه بعض الحلوى الرخيصة أو بعض الفول السودانى من أحد السيدات اللائى يتجرن فى هذه الأشياء فى الحارة • ويصل الطفل الى هذه المرحلة فى الغالب حتى قبل أن يكون متمكنا بالفعل من لغته الخاصة • ومن أول الكلمات التى يتعلمها الطفل فى الحارة كلمة « **القرش** » •

وعندما يصل الطفل الى سن الثالثة ، فانهم يسمحون له بالحركة داخل الحارة وبين أزقتها • وهو يستطيع الآن أن يذهب بعيدا حتى باب الحارة ليحمل رسالة شفهيه عن أمه أو ليشترى بعض السلع من البقال • غير انه نادرا ما يجسر على الخروج خارج باب الحارة دون صحبة أحد • اذ أن ترك الحارة لا يعنى فقط فقد الاحساس باتجاه الطريق ، وانما يعنى احتمال فقد

حياته تحت عجلات سيارة أو أتوبيس • وتستخدم كلمة « تتوه » ـ لتحدد للطفل الحدود التى لا يجب أن يجازف بتخطيها لئلا يضل طريقة • وما يزال للمنادى ، وهو متخصص يتم تأجيره للاعلان بين الناس عن طفل تائه ، دورا موجودا الى الآن فى أحياء القاهرة القديمة • ومن الشائع أن يصطحب الصغير أمه فى كل جولاتها تقريبا خارج الحارة • وهى عادة ما تحمله على أحد كتفيها من أجل أن يترك يداها طليقة لحمل الأشياء •

ويقال أن الطفل يتجاوز مرحلة الطفولة عندما يكون قادرا على القضيان (*) • والقضيان كلمة عامية تعنى « أن ينجز الشىء بسرعة » • وتستخدم الكلمة بمعنيين • فهى تعنى ـ من ناحية ـ انجاز مهمة نقل الرسائل الشفوية وشراء الحاجات المنزلية اليومية للاسرة ، وتعنى من الناحية الأخرى انجاز الاعمال المنزلية • وفى الوقت الذى يكون الطفل فيه قادرا على « القضيان » فانه يقدم على التجاسر بالخروج خارج الحارة دون خوف • ويراود الأطفال من الجنسين ـ فى البداية ـ احساس بأنهم ينجزون شيئا ما عن طريق « قضيان » الأشياء • ويستمر الاطفال من الاناث فى القيام بهذا الدور حتى يتزوجون ويكون لهم أطفال يأخذون عنهم عبء نقل الأشياء والرسائل الشفوية • ومع ذلك ، فان الذكر قد يرفض فى لحظة معينة من حياته القيام بدور شراء الأشياء ونقل الرسائل الشفوية • وعندما يفعل ذلك فانهم يعتبرونه قد تجاوز مرحلة الطفولة • أما النمط الثانى من القضيان والذى يشير الى مساعدة فى الأعمال المنزلية فانه دور خاص بالانثى بالدرجة الاولى وهو يستمر خلال حياتها •

ويرتبط ادراك الطفل للمدينة ارتباطا ملحوظا بدوره كناقل للاشياء والرسائل الشفوية • ففى الحارة يتم شراء السلع يوميا للاستهلاك السريع • والأجور يتم صرفها على أساس يومى أو أسبوعى ، مع استثناء الموظفين

(*) تنطق الكلمة بالالف بدلا من القاف •

(المترجم)

العموميين • فاهل الكار يقبضون نقودهم بمجرد بيع الأشياء ، أما أهل الصنعة فان أجورهم تدفع أسبوعيا • وبناء على ذلك ، فان السيدات يأخذن نفقات الاسرة اما يوميا أو أسبوعيا • ويمكن أن يكون هذا العامل الرئيسى علاوة على عدم وجود الثلاجات فى كل المنازل فضلا عن عدم وجود مكان مخصص للتخزين ، يمكن أن تقدم كل هذه الاشياء تفسيرا لنمط الانفاق علاوة على عدم وجود الثلاجات فى كل المنازل فضلا عن عدم وجود مكان مخصص للتخزين ، يمكن أن تقدم كل هذه الاشياء تفسيرا لنمط الانفاق السائد فى الحارة • وبالاضافة الى ذلك ، فقد لاحظت أن ممتلكات الفرد ، بما فيها الطعام ، يمكن أن يستعيرها أفراد آخرون فى الحارة أو يشاركونه فيها • ولهذا فانه اذا حصل أحد الافراد على شىء ما بوفرة ، فان عليه أن يقتسمه مع جيرانه • ولأنهم على وعى بمثل هذه الانماط من الاستعارة ، فان أبناء الحارة لا يشترون الا الطعام الذى يكفى للاستهلاك السريع فقط • لأنهم ان اشتروا زيادة عن الاستهلاك فان اقتسام الآخرين له سيكون حتميا • ولهذا فانهم يشترون الطعام قبل كل وجبة ، ويشترون الصابون فقط عندما يستهلك كل الصابون الموجود ، ويشترون السجائر « فرطا » فى الغالب ، وهكذا • ولقد شجع هذا النمط من الاستهلاك ان المنطقة التى تقع خارج الحارة تجارية ويمكن وجود أى شىء للاستخدام اليومى هناك بسهولة •

وعلى الطفل أن يجرى بسرعة ذهابا وايابا ، لشراء السلع المختلفة • ويغرى الكبار أولاد الجيران بتقديم الطعام كى يشتروا لهم الاشياء • والحقيقة ، أنه من الشائع ، كما لاحظنا من قبل ، أن ينتقل طفل الى بيت أجداده لكى يقضى لهم الأعمال ويشترى لهم الاشياء • وبالرغم من أن الأم تذهب عادة الى السوق مرتين أو ثلاثة فى الأسبوع لكى تشترى السلع الرئيسية كاللحم والطيور ، فان أطفالها يذهبون لشراء الأشياء باستمرار • والواقع ، أن التمييز بين الأطفال يتم وفقا لقدرتهم على انجاز المهام التى يكلفون بها بسرعة ووفقا لنوعية السلع التى يشترونها • وعندما يشترى طفل سلعة رديئة فانهم يجبرونه على اعادتها ، ولذلك فان الأطفال يصبحون ماهرين فى الشراء فى سن مبكرة •

ويتشكل ادراك الطفل للمدينة خارج الحارة الى حد كبير فى ضوء أى

من البائعين أقرب الى منزله وأى منهم يحمل أجود السلع • ويعرف الأطفال الشوارع بأسماء البائعين الموجودين بها وليس باسم الشوارع نفسها • ويعلّم الأطفال بعضهم كل الطرق القصيرة المؤدية الى أماكن معينة • وقد تشتمل هذه الطرق القصيرة على المرور خلال مسجد أو القفز من فوق حائط مجاور • ويفضل الأطفال فى الصيف الطرق الظليلة الباردة على الطرق المشمسة •

ويسير الاطفال فى طريقهم الى المدرسة فى طرق معينة ، غير تلك التى يسيرون فيها فى ذهابهم لشراء الأشياء • ويذهب معظم الأطفال الى المدارس التى تقع على مسافة يمكن سيرها على الاقدام • وتقع المدارس عادة فى المنطقة التى يألفونها من خلال جهودهم الشرائية • ومع ذلك ، فان الطرق التى يسيرون فيها ذهابا وايابا من المدرسة تختلف عن الطرق التى مستخدمونها فى ذهابهم لشراء الأشياء ويأخذ كل طفل مبلغا للنقود من اجل غذائه ، وبالرغم من أن المقصود من هذا المبلغ أن يستخدم لشراء الطعام، الا أن الأطفال يستخدمونه أيضا لشراء اللعب • ولا يمكن شراء اللعب أو الطعام من المدرسة ، ومن ثم فان الطرق التى يسلكها الأطفال تختلف باختلاف الشىء الذى يريد الطفل شراؤه اثناء ذهابه الى المدرسة أو عودته منها •

وهناك اثنان من الحدود الرئيسية التى تقيد حركة الطفل الى اى منطقة فى المدينة • وهذان الحدان هما الطرق الجانبية أو الشوارع الرئيسية كشارع الأزهر وشارع صلاح سالم ، والميادين الرئيسية كميدان باب الخلق • وعندما يتجاوز الاولاد مرحلة **القضيان** (ويتم ذلك فى سن مبكرة تصل الى تسع أو عشر سنوات) ، فانهم يعملون فى الغالب كصبية فى الورش المتعددة ، سواء فى الحارة أو الأماكن القريبة منها • ومع ذلك ، فان أعمالهم كصبية لا تختلف عن تلك الأعمال التى من المفترض أن يكونوا قد تجاوزوها فى المنزل • فالواقع أن عملهم فى الورشة يطلق عليه أيضا « **القضيان** » • وتنحصر مسئوليتهم ، فى هذا الدور ، فى شراء الطعام والسجائر والمشروبات للعاملين الكبار فى الورشة ، بالرغم من انه قد يطلب منهم فى بعض الأحيان انجاز أعمال معينة كشراء الأدوات البسيطة والاشد

سخرية من ذلك، أن الصبية مكلفون بكنس وتنظيف الورشة ·وهو عمل يقتصر فقط على الاناث فى المنزل · وهكذا فان تحركات الطفل فى المدينة ومعلوماته عنها لا تختلف كثيرا عن تحركات ومعلومات الطفلة · ومع ذلك ، فان أطفال بائعى الفول المحمس الذكور ممن يعملون كصبية لآبائهم ، لهم معرفة أكثر بالمدينة ، الى جانب تمتعهم بخبرة الأطفال الآخرين ·

ويرتبط ادراك المرأة للمدينة ومعرفتها بها بدورها الرئيسى كربة منزل مسئولة عن شراء ضروريات الطعام للاسرة · ويتم الحكم على منطقة سكنية بأنها جيدة أو رديئة بناء على أسواق الطعام · فالسوق يجب أن يكون قريبا من المنزل ويجب أن تكون به منتجات ذات نوعية جيدة ورخيصة فى نفس الوقت · وتربط النساء فى الغالب بين المنطقة وبين سوقها وذلك فى الأحياء المختلفة فى المدينة ووصفهن لهذه الأحياء · ولقد اعتبرت الاخباريات من الحارة شقتى بالقاهرة مكانا سكنيا يثير الاضـــطراب ، لأنها لا تقـــع بالقرب من سوق · فهن لا يستطعن أن يتصورن كيف سيدبرون أمور حياتهن فى مثل هذا المكان دون وجود سوق بالقرب منهن ·

وتعتمد تحركات نساء الحارة الى الأحياء المختلفة فى المدينة على شبكة أقاربهن وأصدقائهن · ودائما ما يأخذ النسوة معهن أصنافا من الطعام أثناء زيارتهن لهؤلاء الأقارب والأصدقاء وهم يعطونهم بدورهـم بعض الطعام · ويسد النساء النقص فى السلع غير الموجودة فى سوق منطقتهن من ســـوق آخر ، وذلك لأنهن يعرفن الباعة المتخصصين فى كل سوق ·

وبالرغم من أن لكل امرأة شـبكة اجتماعية مختلفـة تؤدى بها الى التعرف على أجزاء مختلفة من المدينة ، فان نساء الحارة يشتركن كمجموعة فى معرفة بعض الأماكن الدينية الخاصة · اذ يمثل الاعتقاد فى الأولياء عنصرا أساسيا فى نسقهم الاعتقادى ، ويعرف هؤلاء النسوة الاحياء المختلفة بالمدينة باسم الأولياء الموجودة فى هذه الاحياء ومواقع أضرحة هؤلاء الأولياء · وتزور النساء أضرحة الاولياء هذه باستمرار سواء فرادى أو فى جماعة ، متعللات

فى ذلك بالمناسبة أو بسبب الزيارة • ويعتقد أن قوى الاولياء تكمن فى قدرتهم على الاتصال بالمستوى فوق الطبيعى • ويتوقع من الأولياء ، كوسطاء بين الذين يعتقدون فيهم وبين الله ، أن يقدموا خدمات لهم ، غير ان لكل ولى تخصص فى مسائل معينة وقوى خاصة به تتصل بانواع الخدمات التى يمكن تقديمها • ولهذا نجد أن امراة تزور ضريح السيدة اذا ما شعرت ببعض الاكتئاب ، فى حين أن التى ترغب فى انجاب طفل تتجه الى زيارة الحسين •

وتعرف نساء الحارة جيدا منطقة المقابر التى يطلق عليها اسم «القرافة»، ونادرا ما يزور الشخص القرافة وحده ، بالرغم من أن الرجال قد يصحبون النساء الى القرافة ، فان الزيارات التى تتم فى الاعياد الدينية تعتبر طقسا نسائيا فى الأساس • ولا تتضمن زيارة القرافة اظهار الولاء والاجلال للميت فقط ، بل انها مناسبة اجتماعية تتطلب قدرا من الاعداد • ومن الأشياء التى تعد قبل الذهاب للقرافة أنواع من الكعك التقليدى ، بما فى ذلك الفطائر والشريك • ومن الأشياء التى يتم حملها الى القرافة أيضا الفاكهة ، والجبن، والزيتون ، والمخللات ، ويتم توزيع بعض هذه الأطعمة على الفقراء ، غير أن الحاضرين فى هذه الزيارة الطويلة (والتى تستمر من الصباح حتى المساء) يأكلون معظم هذه الأطعمة • وتتطلب الزيارة قدرا من الولوله والصراخ عندما يكون هناك شخص مات قريبا • اما اذا لم يكن هناك أحد الموتى المحدثين ، فان الذهاب الى القرافة فى أيام الأعياد يصبح حادثة تدعو الى السرور • وبصفة عامة ، فان النساء ينظرن الى هذا الجزء من المدينة على أنه مكان تستطيع فيه النسوة يتعرضن للهواء الطلق ، ويجدن الفرصة لرؤية اقربائهن ، ويستمتعن بالكعك والطعام الذى تحضره كل منهن •

وتعتمد النسوة على « العربات الكارو » كوسيلة مواصلات الى القرافة، وذلك لأنه لا توجد أى أتوبيسات تمر خلال شوارع القرافة • وبالرغم من أنه يمكن استخدام السيارات الأجرة ، الا أن النساء يفضلن « العربات الكارو » حتى يستطعن أن يحملن معهن الأطعمة وأباريق المياه والوسائد والالحفة التى تيسر اساليب الراحة للجماعة اثناء فترة وجودها فى القرافة •

فالعربات الكارو التى تستخدم عادة فى نقل السلع ومنتجات الطعام ، يمكن ان تستخدم أيضا لنقل الناس من مكان الى مكان فى أحياء القاهرة القديمة • ومن النادر أن يستخدم الرجال هذه الوسيلة للمواصلات • ومن أجل تأجير أحد هذه العربات للذهاب الى القرافة والعودة منها ، يجب السعى نحو الاتفاق مسبقا مع زوجة « العربجى » • وتسير هذه العربات أيضا فى طرق تؤدى الى أضرحة الأولياء فى الأحياء القديمة من المدينة •

ويتحرك « الواحية » من المذكور أكثر من أى من سكان الحارة فهم يخرجون الى مسافات أطول ويذهبون الى مناطق لا تنتمى الى القاهرة التقليدية • فهم يغادرون الحارة يوميا قبل شروق الشمس وينتشرون فى المدينة بعرباتهم المزينة المحملة بقدر الفول المدمس النحاسية • ويختلف « الواحية » عن غيرهم من الباعة الجائلين فى أنهم لا يتحركون باستمرار من مكان لآخر من أجل بيع سلعتهم • فكل منهم يختار منطقة معينة فى المدينة ويذهب للبقاء هناك منتظرا زبائنه •

وتعرف هذه المناطق لدى « الواحية » باسم السوق ، وهى تشير الى سوق خاصة تخص شخصا واحدا • ولا تشير الكلمة الى محل تجارى أو قطعة من الأرض يؤجرها الواحى • انه ببساطة بقعة مناسبة فى المدينة ، وعادة ما تكون هذه البقعة عبارة عن ركن فى نقطة تقاطع يتم الدفاع عن استخدامه لها بناء على الأسبقية • و «الواحى» الذى يرغب فى الشروع فى بيع الفول المدمس يجب عليه أن يقوم بمسح المدينة ليحدد لنفسه موقعا يمكن أن تروج معه سلعته • ومن الأمثلة على هذه المواقع الموقع الذى يكون قريبا من أحد المبانى الحكومية التى تقدم خدمات عامة • فمن المتوقع أن يجذب هذا المكان عددا كبيرا من الأفراد ــ الموظفين بالمبنى أو المواطنين المترددين عليه ــ الذين قد يرغبون فى شراء الفول المدمس • وعندما يجد « الواحى » منطقة خالية كتلك ، أى أنه لا يحتكرها شخص آخر ــ فانه يتخذ منها سوقا له • وطالما استقر فى هذا المكان ، لا يستطيع أى فرد آخر أن ينتزعه منه الا اذا باعه طائعا • ويعرف الموقع عادة باسم البائع ، ويطلق الأفراد

الآخرون الذين يشتغلون بتجارة الفول المدمس على المنطقة « سوق الواحى » . وفى الوقت الذى تعتبر فيه هذه المواقع جزءا من الشوارع وهى ملك الحكومة ولا يستطيع أى فرد أن يبيعها أو يشتريها قانونا ، وفى الوقت الذى يعتبر فيه البيع من مكان ثابت فى الشارع عملا غير قانونى بنفس الدرجة ، فان الواحى الذى يشترى سوقا معينة لا يشترى بالفعل الأرض التى يقف عليها ليبيع سلعته ، وانما يشترى حق البيع لزبائن الشخص الآخر ، وشهرته كبائع ، والنية الحسنة لموظف البلدية الذى تغاضى عن وجودة فى المكان . ويحدث فى بعض الأحيان أن يهجر السوق أو يباع لأن موظف البلدية المسئول عن المنطقة قد نقل ولا يجد البائع أسلوبا للتعامل مع الموظف الجديد .

وينظر « الواحى » الى المدينة فى ضوء تقاطع الشوارع وما اذا كانت هذه التقاطعات تصلح كسوق جيدة أو رديئة . ويذهب « الواحى » الى السوق يوميا ويعود الى الحارة بعد أن ينتهى وقت الوجبة . ويستغرق هذا الوقت عادة الفترة من ٦ ـ ١٠ صباحا . ونادرا ما يتفاعل الواحى مع سكان هذه الأحياء ، كما أنه لا يعود الى سوقه من أجل أغراض أخرى ، فعلاقته بالناس لا تتجاوز الخبرة اللحظية المرتبطة ببيع وشراء الفول المدمس . وبناء على ذلك فانه لا يحمل الى الحارة سوى النذر اليسير من ثقافة هذه المناطق .

ويذهب الشباب ، سواء من « الواحية » أو « أولاد البلد » أو أى جماعة أخرى الى المدينة فى العطلات الأسبوعية للأغراض الترويحية . ولهذا فانهم على معرفة بدور السينما الموجودة فى وسط المدينة ، والحدائق العامة ، وضفاف نهر النيل . وهم يذهبون الى هذه الأماكن فرادى أو جماعات ، ولكنهم نادرا ما يصحبون أسرهم اليها . وفى أيام الأعياد يشترك الأطفال والمراهقون من الجنسين مع الشباب فى الذهاب الى هذه المناطق الترويحية .

***

لقد حاولت أن أوضح كيف ترتبط الحارة كمفهوم ايكولوجى وتاريخى بالوحدات الادارية والاجتماعية ـ الثقافة الآخرى فى المدينة ككل . فالحارة

تعتبر ـ من الناحية الديموجرافية ـ من أشد الوحدات الادارية كثافة فى المدينة • أما من الناحية الاجتماعية والثقافية فسكان الحارة ينتمون الى أشد القطاعات تقليدية فى القاهرة • واذا ما توقع المرء وجود علاقة تقليدية فى مكان ما فى القاهرة ، فانها ستكون منتشرة أساسا فى مثل هذا المكان • ولقد حاولت أيضا ان أوضح صور التباين البنائية والثقافية التى توجد فى الحارة كنتيجة لوجودها فى نطاق حضرى •